

غير ترود لو ثيان بيل وأخرون

عرب العراق والجزيرة

بحوث عن العراق والجزيرة العربية

ترجمة وإعداد

علي أبو الطحين



منشورات تكوين | تساؤلات
TAKWEEN PUBLISHING



عرب العراق والجزيرة

بحوث عن العراق والجزيرة العربية

وضعها غيرترود لوثيان بيل وآخرون

ترجمة وإعداد علي أبو الطحين

الكاتب: غيرترود لوثيان بيل وآخرون
عنوان الكتاب: عرب العراق والجزيرة: بحوث عن العراق والجزيرة العربية

ترجمة وإعداد: علي أبو الطحين
X

العنوان باللغة الأصلية: The Arab of Mesopotamia

الكاتب: Gertrude Bell

X

تصميم الغلاف: يوسف العبدالله

تنفيذ داخلي: سعيد البقاعي

X

ر.د.م.ك: 978-9921-775-99-0

الطبعة الأولى - يوليو/ تموز - 2023

3000 نسخة

X

جميع الحقوق محفوظة للناسر ©

X

الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة

تلفون: + 965 98 81 04 40

بغداد - شارع المنتهي، بناية الكاهجي

تلفون: + 964 78 11 00 58 60

✉ takween.publishing@gmail.com, 📱 takweenkw

com

📧 takween_publishing

📱 TakweenPH

🌐 www.takweenkw.com

X

لبنان - بيروت / الحمرا

تلفون: +961 1 561 980 / +961 1 345 683

بغداد - العراق / شارع المنتهي، عمارة الكاهجي

تلفون: 07830070045 / 07810001005

✉ daralrafidain@yahoo.com

📱 Dar alrafidain

✉ info@daralrafidain.com

📱 Dar.alrafidain

🌐 www.daralrafidain.com

📱 Dar alrafidain

مقدمة

هذا الكتابُ هو حصاد مجموعة من التقارير وُضعتْ خلال سنوات الحرب العالمية الأولى، بطلبٍ من وزارة الحرب البريطانية، لمواضيع تتعلق بالعراق والمناطق المجاورة، لتساعد الضباط والجنود المشاركين في الحملة العسكرية البريطانية على بلاد الرافدين في التعرف على السكان وطبيعة البلاد الجغرافية، وإمكانياتها المستقبلية. صدر الكتاب من قبل مطبعة الحكومة في البصرة في العام ١٩١٧ تحت عنوان «عرب بلاد ما بين النهرين».

يقع الكتاب في جزأين، على هيئة كتابين في مجلد واحد. الجزء الأول بعنوان «عرب بلاد ما بين النهرين» يضم عشرة مقالات، كُتبت في البصرة خلال سنة ١٩١٦، وليس هناك إشارة في صفحة العنوان إلى اسم المؤلف، لكن ذُكر في مقدمة الجزء الأول أن المقالات وُضعت «من قبل أشخاص لديهم معرفة خاصة بالموضوعات التي تم تناولها». وتشير كلمة أشخاص بالتالي إلى مساهمة أكثر من كاتب. وكان من الواضح، أن مقالة واحدة على الأقل وضعها القس الأميركي جون فان أيس. وعلى الأغلب، أن المقالات التسعة الأخرى هي بقلم المس غيرترود بيل (1). تناولت فيها وصفاً عاماً لسكان العراق، وتوزيع القبائل والعشائر العراقية، والظروف القاسية تحت الحكم التركي، والعلاقة مع القبائل العربية في المحمرة والخليج ونجد، كما كتبت عن زيارة عبد العزيز بن سعود إلى البصرة في تشرين الثاني سنة ١٩١٦.

أما الجزء الثاني من الكتاب، فهو بعنوان «تركيا الآسيوية» وذُكر في صفحة العنوان لهذا الجزء، اسم المؤلفة، غيرترود لوثيان بيل، وبالتالي فإن جميع المقالات السبعة الواردة في هذا الجزء بقلمها، وضعتها في بغداد خلال حزيران وتموز سنة ١٩١٧، أي بعد وصول القوات البريطانية إلى بغداد في آذار من ذلك العام. تتناول هذه المقالات كما يتضح من العنوان الولايات الآسيوية في الامبراطورية العثمانية. تصف فيها الطبيعة الجغرافية وتوزيع السكان والأهمية الاقتصادية للولايات العربية في العراق وسوريا، والولايات التركية في آسيا الصغرى والأناضول.

في الوقت الذي كتبت فيه هذه المقالات كانت الولايات العثمانية الثلاث، بغداد والبصرة والموصل، التي تُشكّل العراق اليوم ما زالت رسمياً تحت الحكم التركي، وحدود العراق وجغرافيته الطبيعية والسياسية غير معروفة بعد. فالمصطلحات الجغرافية مثل بلاد ما بين النهرين Mesopotamia، وتركيا العربية Turkish Arabia، وتركيا الآسيوية Asiatic Turkey، أو تركيا في آسيا Turkey in Asia، فضلاً عن العراق أو العراق العربي أحياناً، كانت تستخدم بشكل عام في الأدبيات الإنكليزية وجميعها تشير كلياً أو جزئياً إلى ما هو عليه العراق اليوم. وفي نظرة سريعة إلى عناوين مقالات الجزء الأول من هذا الكتاب

سنجد استخدام المصطلحات، Iraq Turkish Arabia و Mesopotamia في الصفحة نفسها، وكلها تقصد العراق اليوم بصورة مختلفة.

ضمن هذه المفاهيم الجغرافية المتباينة، استخدمت المس بيل بشكل عام، كلمة «العراق» في هذه المقالات للإشارة إلى ولايتي بغداد والبصرة العثمانيتين، أي تقريباً الأراضي من شمال بغداد وحتى الخليج العربي، ومصطلح «تركيا العربية» للتعبير عن العراق في ولاياته الثلاث، بغداد والبصرة والموصل، بينما استخدمت مصطلح «بلاد ما بين النهرين» لأراضي حوض نهري دجلة والفرات، الممتدة من منابعهما حتى المصب في الخليج، والمقصود منها الولايات العراقية الثلاث وبعض المناطق في ولاية ديار بكر. علاوة على كل ذلك، هناك استخدام لمصطلحات جغرافية هلامية أخرى، لمناطق مفتوحة صعبة التحديد، مثل «الجزيرة» الذي يقصد به الأراضي الواقعة بين نهري دجلة والفرات من شمال بغداد وحتى ماردين، وكذلك شمال الجزيرة العربية، الذي يشير إلى الأراضي الصحراوية من حائل إلى حدود الموصل وحلب، والتي أيضاً تُعرف بالبادية الشامية أو السورية أو الغربية أحياناً.

كان لا بد من التقيّد بالمصطلح الجغرافي المستخدم في هذه المقالات، إلى حدّ ما، ليكون ضمن الفكرة المقصودة للمؤلفة في تلك الفترة. وإن كان هناك بعض التفاوت وعدم التناسق في استخدام ذات المصطلح. وتمّ اعتماد «بلاد ما بين النهرين» ترجمة لـ Mesopotamia وهي الأكثر شيوعاً في الترجمات العراقية، واختزالها إلى «بلاد النهرين» أو «بلاد الرافدين» في بعض الأحيان.

ولا بد من الإشارة أيضاً إلى ذكر أسماء بعض المدن في تلك الفترة، فمدينة إسطنبول مثلاً، ترد في بعض المقالات باسمها القديم «القسطنطينية»، أو تشير إلى الحكومة فيها باسم «الباب العالي»، وأحياناً تقصدها باسم «حيدر باشا»، عندما تشير إلى محطة القطار الرئيسية، التي تقع في الجزء الآسيوي من إسطنبول. تمّ ذكر الأسماء كما كانت تعرف آنذاك، واعتمد اسم الأستانة بدلاً من القسطنطينية ترجمة لـ Constantinople.

كتبت المس بيل هذه المقالات بالأساس إلى الضباط والجنود المشاركين في حملة بلاد الرافدين، في وقت كانت المعارك الحربية بين القوات البريطانية والتركية في ساحات القتال في العراق ما زالت مستعرة، ونتائج هذه الاشتباكات العسكرية غير واضحة للعيان، خصوصاً بعد انتصار الأتراك في معركة الكوت. فكان من الطبيعي أن تتباين وتتناقض مواقف العراقيين تجاه القوى الأجنبية المتحاربة على أرضهم، في حرب ليس لهم فيها ناقة ولا جمل. لذلك ليس من المستغرب أن تُطلق المس بيل بعض النعوت والمسميات لهذه القبيلة أو تلك، ولهذا الشيخ أو ذاك، حسب موقفهم مع أو ضد الجانب البريطاني، خلال تلك الفترة الحرجة المتأرجحة من الحرب. كما أن هذه المقالات وضعت عموماً كوسيلة لتنوير وإرشاد أفراد الحملة العسكرية، ومنحهم خلفية معرفية عن تاريخ وجغرافية العراق والمجتمع العراقي وعن كيفية التعامل السليم مع العراقيين.

ولكي تكون هذه المقالات التعريفية الموجزة سهلة الوصول إلى أفراد الحملة وفي متناول الجميع، تمّ تنظيمها وإصدارها على شكل «كتاب جيب» صغير، يمكن حمله ومراجعته في أيّ وقت وفي كلّ مكان. وبسعر مناسب لا يتجاوز ٨ آنات للنسخة بالغلّاف الورقي، وروبيّة واحدة للنسخة بالغلّاف المقوّى والقماش.

أضيفت مجموعة من الصور الفوتوغرافية، التي تتعلق ببعض الشخصيات والأماكن الواردة في هذه المقالات. التقط معظمها خلال فترة الحرب العالمية الأولى في العراق، ولم تكن ضمن الكتاب الأصلي.



غيرترود بيل في بغداد سنة ١٩١٧

(1) انظر التقارير التي وضعتها المؤلفة للمكتب العربي في القاهرة في أرشيف دائرة الهند في المكتبة البريطانية، كما ذكرت بعضها في الرسائل إلى والدها.

الخاتون غيرترود بيل والعراق

«أعتبر نفسي بغدادية أكثر من كثير من البغداديين المولودين فيها، وأراهن على أنه ليس هناك بغدادي واحد يهتم أكثر من، أو بنصف، اهتمامي بجمال النهر أو بساتين النخيل فيها، أو يتعلق بحقوق المواطنة أكثر من تعلقي بتلك الحقوق التي اكتسبتها...»

من رسالة للمس بيل إلى والدها في ٣٠ كانون الثاني ١٩٢٢

ارتبطت حياة المس بيل بالعراق منذ قدومها للعمل في المكتب العربي في البصرة في آذار ١٩١٦، وتعلق قلبها بحب العراق والعراقيين، كما تفيض رسائلها الخاصة المفعمة بعطر هذه المحبة إلى ذويها، حيث تقول: «نفذ حبّ الشرق إلى قلبي، حتى أصبحت لا أعرف كيف أفرق بينه وبينني؟ إن شعوري بذلك لا يفارقني قط، وأنا أشعر دوماً بسحره وجاذبيته اللذين لا يقلان في نظري كلما ازددت تعرفاً إليه»⁽²⁾.

نظراً لخبرتها في شؤون القبائل البدوية والعشائر العراقية، تمّ تعيين غيرترود بيل ضمن إدارة المكتب العربي في القاهرة في تشرين الثاني ١٩١٥، وأرسلت للعمل تحت الإدارة السياسية المدنية التي تشكّلت في البصرة تحت قيادة بيرسي كوكس. اكتسبت المس بيل خبرة كبيرة عن العشائر العراقية، من خلال خزبن غني من الذكريات والملاحظات والمدونات التي وضعتها أثناء جولاتها السابقة في بلاد الشام والعراق ورحلاتها في عبور الصحراء إلى حائل في شمال الجزيرة العربية قبل الحرب العالمية الأولى. وكانت قد وضعت كتاباً عن رحلتها إلى سوريا في سنة ١٩٠٧، كما نشرت رحلتها العراقية المعنونة «مراد إلى مراد» في كتاب ضخّم صدر سنة ١٩١١، عن الزيارة التي قامت بها إلى العراق سنة ١٩٠٩، وكانت قد زارت العراق مرات أخرى في سنة ١٩١١ وكذلك سنة ١٩١٤.

كانت المس بيل تجيد التحدث باللغتين العربية والفارسية، وأنيطت لها مهام مقابلة شيوخ العشائر والزعماء المحليين، ومحاولة فهم مواقفهم وإقناعهم للاصطفاف إلى جانب بريطانيا خلال الحرب. وكُلفت من قبل وزارة الحرب في وضع المقالات والدراسات الاجتماعية والسياسية في خدمة القادة السياسيين والضباط العسكريين العاملين في العراق. فضلاً عن التقارير والمقالات العديدة التي رفعتها إلى المكتب العربي في القاهرة، ومنها ما جمع في هذا الكتاب، كما واكبت إعداد مجموعة من المؤلفات أصدرتها الهيئات الحكومية في تلك الفترة، تضمّ جداول مفصلة للعشائر العراقية، كما أخرجت كتاباً مهماً شاملاً عن الشخصيات العراقية. وأصدرت ضمن الكتب الرسمية للحكومة البريطانية، كتابها المعروف عن «الإدارة المدنية في العراق» في سنة ١٩٢٠.

درست غيرترود بيل التاريخ في جامعة أكسفورد العريقة، وكان لها اهتمام كبير بتاريخ وحضارات بلاد الرافدين، وضعت كتاباً مهماً عن «قصر الأخيضر» طبع في مجلد مصوّر ضخّم في أكسفورد سنة ١٩١٤. وكانت لها يد بيضاء، حين سعت ضمن ميزانية العراق المحدودة جداً حينها، بتأسيس صرح المتحف العراقي وشيّدت بنايته الحديثة في قلب بغداد في سنة ١٩٢٦، كما أسهمت في وضع قانون الآثار، للحفاظ على إرث وتاريخ الحضارات العراقية. وعملت في إدارة المتحف وتنظيم محتوياته حتى وفاتها في بغداد في ١٢ تمّوز سنة ١٩٢٦.

اعتادت المس بيل كتابة رسائل شبه يومية إلى ذويها وأصدقائها في بريطانيا، تتناول فيها يوميات الأحداث السياسية والاجتماعية في العراق، ومدونات من لقاءات وأحاديث مع مختلف الشخصيات العامة. كتبت ذلك في فضاء مفتوح، بعيداً عن القيود في كتابة التقارير الإدارية والرسمية، والالتزام بالأعراف والتقاليد الاجتماعية، فكانت تعكس حقيقة مشاعرها وصدق أحاسيسها، معبرة عما يجول في خاطرها، من آراء وأحكام، ومن آمال وأحلام، وما يقتدرن في مسيرة حياتها العراقية من شؤون وأحداث. بعد وفاتها أعدت زوجة أبيها مجموعة كبيرة من رسائلها في كتاب كبير صدر في مجلدين بعنوان «رسائل غيرترود بيل»، وطبع في لندن سنة ١٩٢٧. أصبح الكتاب مرجعاً مهماً في تاريخ العراق الحديث، على الرغم من لجوء المحررة إلى تقليص وحذف الكثير من نصوص تلك الرسائل، لتجنب إثارة المشاكل مع العديد من الشخصيات البريطانية والعراقية التي وردت أسماؤها في تلك الرسائل وكانت ما زالت على قيد الحياة.

ترجمت معظم مؤلفات المس بيل عن العراق إلى اللغة العربية، بجهود مجموعة من المترجمين العراقيين الأكفاء، ونأمل أن تكون هذه الترجمة إضافة مهمة إلى تلك المؤلفات والمصادر القيّمة عن تاريخ العراق الحديث وتُسهم في دراسة التطور السياسي والاجتماعي في تكوين المجتمع العراقي.



خارطة بلاد ما بين النهرين

(2) «العراق في رسائل غيرتود بيل» ترجمة جعفر الخياط، مكتبة النهضة العربية، ٢٠٢٢، ص ٢٨٣.

الجزء الأول عرب بلاد ما بين النهرين

مقدمة

يتكون هذا الكتيب من سلسلة مقالات موجزة حول مواضيع تتعلق ببلاد الرافدين، كُتبت خلال عام ١٩١٦، من قبل أشخاص لديهم معرفة خاصة بالموضوعات التي تم تناولها. نُشرت جميعاً بشكل ما بالفعل، ولعل العديد من أولئك الذين جلبهم حظهم إلى الحرب في هذه المناطق سيكونون سعداء بالحصول عليها. تمّت إعادة طبعها وعرضها للبيع في هذا الكتاب.

القبائل العربية في بلاد ما بين النهرين

تستوطن الأراضي الزراعية الخصبة التي تُروى بنهري دجلة والفرات مجموعة من القبائل العربية المستقرة نوعاً ما، التي سبق وهاجرت من صحاري الجزيرة العربية. بعضها استقرت في العراق منذ زمن بعيد، والأخرى جاءت في القرنين أو الثلاثة الماضية، لكن جميع أبنائها في الأصل من البدو الرحّل القادمين من قلب الصحراء العربية المقفرة. وتعدّ هذه الهجرة المستمرة للبدو نحو الشمال، أحد أهم العوامل المؤثرة في تاريخ شبه الجزيرة العربية. ربما هناك أسباب عدة متشابكة لهذه الهجرة، لكن السبب الرئيسي لا بدّ أن يكون هو التغيّر التدريجي للظروف المناخية في شبه الجزيرة العربية، بما في ذلك الجفاف البطيء، إلى جانب الضغط الناتج عن زيادة عدد السكان ومحدودية الأراضي التي تزداد فقراً بشكل مُطرد. فالمراعي الغنية على الحدود السورية والخصوبة التي لا تنضب في بلاد ما بين النهرين، توفر عوامل جذب لا تقاوم بالنسبة لهؤلاء البدو الرحّل الجياع، حين تُتاح لهم فرصة للتوسع عند حالة الضعف والنزاعات السياسية في الولايات الشمالية المجاورة، سواء كان هذا في عهد الإمبراطورية العثمانية أم البيزنطية أم الفارسية السابقة. وتعطينا السجلات البابلية المطولة، إمكانية متابعة هذه العملية في المراحل التاريخية الماضية. وتبيّن الدراسات الحديثة أنه حتى فترة قريبة كانت الهجرة لا تزال مستمرة. وإذا كان من الخطأ التنبؤ، فإنها سوف لن تتوقف في المستقبل، على الرغم من أن طبيعة الهجرة قد تتغير. فبدلاً من الجحافل الغازية، كاجتياح الجراد فوق حقول القمح والمراعي، قد يجد الفائض من سكان شبه الجزيرة العربية، أن في بلاد الرافدين التي أعيد تنظيمها من خلال الإدارة الجديدة الجيدة، ليس فقط وسائل وفيرة لكسب لقمة العيش، ولكن توفر إمكانيات بعيدة المدى للتقدم الاجتماعي والفكري؛ وسيتمّ استقبالهم بترحاب في أرض يمكن استثمار مواردها الغنية وغير المحدودة بما يتناسب مع ظروف العمل المتاحة.

كان انتقال وتحول مرّبي الإبل الرّحل إلى أصحاب أرض ومزارع، مثل ما حدث في بلاد ما بين النهرين، عملية لا مفرّ منها، فخلال تقدمهم شمالاً وجدوا أنفسهم في نهاية المطاف على حدود الصحراء؛ فالمساحات الواسعة الضرورية لوجود البدو لم تعد ممتدة أمامهم، بينما يستمرّ الضغط ممّن هم وراءهم بمنع أيّ عودة. لقد اضطروا إلى النظر في الزراعة كوسيلة لكسب الرزق، وبالتالي فقدوا الطبقة الاجتماعية للبدو الحقيقيين. وعلى الرغم احتقارهم التزاوج مع الفلاحين، ورعاية الأغنام والجاموس، مع أنهم من ذات الدماء والتقاليد، ومن أفخاذ قبائل عربية قديمة جداً ومعروفة غالباً، تواجدت بين المزارعين على أطراف حدود الهجرة العربية. وهكذا تواجد في العراق، بنو تميم، الذين ينقسمون بين مجموعات قبلية كبيرة مختلفة، كانوا أسياداً لوسط شبه الجزيرة العربية بالكامل قبل زمن النبي، وما زالوا يشكّلون جزءاً كبيراً من سكان الواحات، يعود ظهورهم الأول في العراق إلى حوالي بداية العصر الإسلامي. والخزرج، الموجودون الآن بشكل رئيسي على الحدود الفارسية، تواجدوا بسبب ماثرهم العسكرية في المناطق الصحراوية الجنوبية، وهم من سلالة معروفة في صناعة الشعر قبل الإسلام.

ونتيجة للظروف التي تمّ في ظلّها الاستيطان، فإن هذه القبائل القديمة غالباً ما تنتشر على نطاق واسع على امتداد أطراف الأراضي الزراعية الخصبة. هذه القبائل الكبيرة التي كانت في يوم من الأيام تغطي مساحات شاسعة من الصحراء تمّ تقسيمها بفعل تدخّل الآخرين. على سبيل المثال، قبيلة الجبور، وهي قبيلة نصفها فقط من البدو، توجد على طول نهر دجلة حتى أقصى الشمال عند الموصل، وكذلك على الحدود الشرقية لسوريا؛ والزبيد مقسمة بين العراق والمناطق البركانية في شرق دمشق.

إن الانتقال من الحياة البدوية إلى الحياة المستقرة هو دائماً عملية بطيئة، ولم يكن توفر الأمن الحقيقي تحت إدارة السلطات العثمانية ليسهم إلى التعجيل به. فباستثناء الجوار المباشر للمدن الكبيرة، مثل بغداد والبصرة، لم تتخلّ أغلب المناطق عن التنظيم القبلي، ولا تزال القوانين والعادات القبلية تمارس بفعالية، ولا يزال الثار القبلي يشكل كارثة رهيبية. وتعدّ العودة المتكررة إلى البداوة أمراً شائعاً، وحتى الفلاحون من سكان القصب هم شبه رحل، ويتنقلون بشكل متكرر من مكان إلى آخر. هذا ما يحدّد واضح الخرائط، حين يجد أن آخر ما أضاف للمعرفة الجغرافية قد أزيل، أمام عينيه أحياناً، من المكان المخصص له في المسح السابق وانتقل إلى موقع آخر. ولكن، ارتفاع القيمة المستمرّ للأرض أجبر هؤلاء الفلاحين على الاستقرار، وبمجرد أن يستقروا، تزداد أعدادهم بشكل يصعب مقارنته مع إخوانهم الجياع الذين يفتخرون بأنهم لا يحرقون أو يحصدون أو يعملون في الزراعة.

تحتل مشيخة قبائل المنتفق منطقة تقدر تقريباً بـ ٦٥ ميلاً من الشرق إلى الغرب و٥٠ ميلاً من الشمال إلى الجنوب وعددهم لا يقلّ تقريباً عن مئتي ألف شخص، بينما مجموع قبائل البدو الكبيرة مثل قبيلة عنزة الذين يسكنون البادية السورية من حلب حتى صحراء وسط الجزيرة العربية، بالكاد يزيد عددهم إلى أكثر من هذا.

إن قرب بلاد فارس ووجود مدن كربلاء والنجف في العراق، وفيهما أكثر المزارات المقدسة للطائفة الشيعية، التي ينتمي إليها الفرس، ومع التدفق الواسع للزوار الفرس، جعل البلاد تحت التأثيرات الفارسية بشكل كبير. تنتمي قبائل البدو العربية بالكامل إلى النصف السني من الإسلام، ومع ذلك فقد اعتنقت القبائل التي استقرت في بلاد الرافدين، بدون استثناء تقريباً، المذهب الشيعي. رغم أن بعضهم يتمسكون بعاداتهم البدوية البحتة، «أهل الإبل» كما يسمون أنفسهم بفخر، وقد حافظوا بشكل عام على عقيدة البدو المذهبية وهم دائماً من السنة.

من رأس الخليج العربي حتى القرنه، يكاد التنظيم القبلي أن ينقرض، ربما باستثناء تلك الأعداد من الفلاحين العاملين في بساتين النخيل، والذين ينتمون إلى قبائل حليفنا القوي على الجانب الفارسي من نهر شط العرب، شيخ المحمرة القوي، الذي حافظ دوماً ومنذ القدم على حشد أتباعه في معارك وغزوات القبيلة. ما بعد القرنه، في الأراضي المحصورة بين نهر الفرات إلى نهر دجلة، ولبعض المسافة على طول ضفتي النهرين، تحتلها قبائل المنتفق، وهو تحالف كبير مهلهل لقبائل من أصول عربية مختلفة، وكلهم يعترفون بدرجة أقل أو أكبر، بسيادة أسرة السعدون وهي عائلة مكية على صلة وثيقة بالأشراف، هاجر فرع منها إلى بلاد ما بين النهرين قرب نهاية العصر العباسي، في بداية القرن الخامس عشر. وهم على المذهب السني النقي، وأقاموا سلطتهم على القبائل الشيعية ولعبوا دوراً كبيراً جداً في تاريخ البلاد المضطرب. وحين قدّم أحد شيوخ العائلة خدمات قيّمة للحكومة العثمانية في أحداث وسط الجزيرة العربية، حاول الباب العالي تجربة تعيينه والياً على البصرة، لكن سرعان ما فشلت التجربة وتمّ التخلي عنها.

في السنوات الأخيرة، كانت قوتهم كعائلة متنفّذة تتفكك تدريجياً بسبب الخصومات والخلافات الداخلية، وفي الوقت الحالي -على الرغم من أن العديد من الأعضاء البارزين في مشيخة السعدون يمتلكون عقارات كبيرة في ولاية البصرة- إلا أن قدرتهم أصبحت محدودة في الحصول على مستحقّاتهم من الإيرادات القبلية وضعف وزنهم كشيوخ في الميدان. ومع ذلك، لا تزال لعائلتهم هبة كبيرة.

لقد كان موقف أسرة السعدون، الذي تأثر باندلاع الحرب بين تركيا وبريطانيا العظمى، موقفاً صعباً، حيث يمتلك العديد منهم ممتلكات في كلا الأراضي الخاضعة للاحتلال البريطاني وتلك التي ما زال يسيطر عليها الأتراك حالياً؛ ولكن باستثناء حالتين أو ثلاث من الأمور التي لا يمكن التوافق عليها، فإنّ سلوكهم على العموم كان منطقياً ومفهوماً، وليس هناك شكّ في أنهم سيأتون جميعاً إلى حظيرة الدولة، عندما يقتنعون باختفاء الحكم التركي إلى الأبد من ولاية البصرة.

لا يزال جزء من المنتفق من البدو الرحّل؛ والباقي منهم يسكن أكواخ القصب أو في القرى وحتى المدن، يعملون في الزراعة وتربية الأغنام والماشية والجاموس والإبل. والكثير

منهم -وإن كانوا ينتمون إلى القبائل المستقرة- يرعون قطعانهم في الصحراء خلال الربيع.

إن قبائل جنوب العراق مسلحة بشكل أفضل من القبائل القاطنة إلى الشمال من مدينة الكوت، كما أن المنتفق مزودة بشكل جيد بالبنادق الحديثة.

إلى الشمال، وعلى طول مجرى نهر دجلة، تقريباً حتى الكوت، تستقر قبيلتان كبيرتان وقويتان، تقطنان في الأراضي بين النهر وحتى المرتفعات الفارسية. إحداهما ابو محمد، وهم الأقل في المركز الاجتماعي، ومن المحتمل من أصول غير عربية، يعملون في زراعة الشلب في الأهوار على جانبي دجلة، ويربون قطعاناً ضخمة من الجواميس، التي يتم تصدير أعداد كبيرة منها إلى سوريا. ومثل كل عرب الأهوار، فقد حافظوا على شبه استقلالهم، وهم مسلحون بشكل جيد بالبنادق، حتى أصغر أفراد القبيلة. المجموعة الكبيرة الثانية، هم عشائر بني لام، استقرت في الأراضي فوق العمارة على مدار الأربعمئة أو الخمسمئة عام الماضية. يزعم شيوخهم أنهم ينحدرون من قبيلة شهيرة من شرق الجزيرة العربية قبل الإسلام، ولكن على الرغم من ادعاءاتهم، لا يعترف بدو الصحراء بأي نوع من المساواة، ولا يتزاجون معهم. شيخهم الأكثر شهرة، غضبان، كان ثائراً كبيراً ضد الحكومة العثمانية قبل الحرب، وانضم إلى الأتراك ضدنا لكنه الآن أعاد النظر في موقفه، وتفاهم معظم أتباعه معنا بمجرد تقدمنا في نهر دجلة. إن قبيلة بني لام مزارعون، لكن لم يهجر أي منهم حياة البداوة تماماً. فهم يسكنون الخيام ويتنقلون بشكل عام مع قطعانهم من شباط وحتى حزيران. وتعتبر خيولهم وجمالهم الأفضل في العراق. وهي رائعة في الصيد، خصوصاً من على السرج.

حول الكوت، وعلى ضفتي نهر دجلة وكذلك على الجزء العلوي من ترعة الحي الكبيرة، التي تتدفق من نهر دجلة جنوباً، تنتشر قبيلة بني ربيعة، وهي قبيلة ذات شهرة قديمة في شبه الجزيرة العربية. إنهم قوم مشاغبون، ولصوص معروفون ويعطلون حركة المرور على طول النهر، لكنهم ليسوا مسلحين بكفاءة مثل جيرانهم في الجنوب. وهناك عشائر صغيرة مثل طوقة والزييد، وهي لا تملك سوى بنادق قليلة، لذلك من السهل السيطرة عليهم وإخضاعهم، وتقع مناطقهم الزراعية على ضفاف دجلة صعوداً إلى بغداد. بينما سكان الأهوار على الفرات فوق الناصرية، ومع أن سمعتهم غير طيبة، إلا أنهم لم يظهروا تجاهناً أي سوء في التصرف.

قد يبدو سكان الأهوار والمستنقعات وبيوت القصب، في أدنى مقياس للحضارة، لكن يجب ألا ننسى أبداً السرعة المذهلة للعرب في التأقلم مع الظروف الجديدة والاستفادة من الفرص غير المتوقعة. الطفل المولود بالأمس في كوخ من القصب أو خيمة سوداء من شعر الماعز، قد يُعثر عليه وهو يمارس الطب أو القانون في بغداد قبل انتهاء ربع القرن القادم، وعلى الرغم من أن والده قد يفضل الالتزام بشيء يشبهه إلى حد بعيد العادات القديمة، إلا أن رصيماً جيداً في البنك سيشهد على أنه يعيش الحياة البسيطة باختياره وليس مجبراً.

أسس الحكم التركي في العراق

لم تكن هناك دولة تعطي انطباعاً للحكم الراسخ والحكومة المركزية، في أعين العالم، أكبر مما كانت عليه الإمبراطورية العثمانية في عالم الخيال. على الورق، لها كل معنى للسيادة، وفي الشؤون الإدارية كل شيء في مكانه الصحيح، في سماتها العامة وميزات موظفيها من الباشوات إلى رجال الجندرية، كل شيء متقن ويعمل بكفاءة في إنجاز الواجبات المطلوبة المحددة. وفي الوقت المناسب، فإنّ النتائج المحمودة لمجهود هؤلاء المديرين بالثقة ستكون موثقة، من شؤون الضرائب التي جمعت، والغرامات التي فرضت، والطرق التي نفذت عبر الجبال والصحراء، والأعمال المحلية والبلدية التي قاموا بها بكل دقة وأمانة. كل شيء على الورق؛ لكن بالنسبة للباحث المدقق الذي يمكنه إجراء أبحاثه إلى أبعد من السجلات والصفحات المكتوبة، أو استعراض الموظفين الوهميين، أو عدّ أكياس النقود، أو السفر على طول الطرق والجسور الوهمية السريعة لدولة السلطان، قد يخيب ظنّه في الواقع الفعلي. وحتى لا يكون بفضوله غير المحسوب مذنباً، بأن تجبره الظروف على التأكد من حقيقة العلاقة القائمة بين البيانات الوثائقية على الطريقة التركية والحقائق الواقعية للإمبراطورية العثمانية، سيجد نفسه تائهاً وحائراً، وفي حالة مربكة من المزاح الثقيل المزعج. عندما يتوقف عمله بسبب الضغوط الجامحة أو الضجة الصاخبة لذوي النفوذ المحليين، حين يجد أن مستنداتهم الورقية هزيلة بما يكفي للتحقق منه، فضلاً عن المزاح المضحك عندما يطنب الوالي عن الفوائد التي نتجت على الأرض من أفكاره (تحت ظل الله) فيما يتعلق ببناء الطرق والجسور الكافية، أو تأكيد القائد بالمثل أن كل جزء من البرية مغطاة بأجنحة حمائم السلام السلطانية.

بنظرة سريعة، يبدو أمراً رائعاً بشكل تام، كيف تدار الإمبراطورية العثمانية، لكن بزيادة المعرفة والتأمل تجد على الأقل دليلاً على جزء من المشكلة. فالدولة لا تدار على مراسم موضوعية، وإنما على قوانين غير مكتوبة، وأحكام غير مدونة لدى السلطة. إن عادة القيادة والطاعة الموروثة من الماضي البعيد هي القابلة للتطبيق على الحاضر المباشر، الذي لم يكن مختلفاً تماماً عن الماضي؛ وهي لا تبنى على سلطة وكفاءة الوالي والقائد، ولكن على سلطة زعيم القرية، أو شيخ القبيلة، أو سيد المنطقة. ففي خارج الدائرة الضيقة للمدن، تتمّ تنحية الآلية الرسمية جانباً، وتكون طرق الإجراءات القديمة أكثر فاعلية في العمل؛ وفي جزء كبير من المناطق الآسيوية في تركيا يكون الجهاز التنفيذي في أيدي الرجال الذين ليس لهم دور في واقع الحال.

وبما أن الأساس الفعلي للإدارة الحقيقية يكون مستقلاً إلى حدّ كبير عن المسؤولين العثمانيين، فإن عدم وجود هؤلاء المسؤولين لا يؤثر في أيّ جزء محدد من الإمبراطورية. إن سلطة الشيخ أو الزعيم ليست مستمدة من السلطان ولا من الدستور، ولا يمكن أن تسقط معهم. إنها متجذرة بعمق في الحياة اليومية للناس، وبإدارة حكيمة، يمكن أن تشكل

ولأجيال عدة قادمة العنصر الأساسي للقانون والنظام. في الواقع، يجب أن يشكّل الأساس لجميع الحكومات حتى الوقت الذي تؤدي فيه مرافق الاتصال المتطورة ودائرة أوسع من التنوير إلى نمو طبيعي لمثل هذا الإجراء من المركزية غير المنتجة. ومن الأكثر أماناً أن نتوقع أنها ستكون مركزية مختلفة تماماً عن تلك التي سعت جمعية الاتحاد والترقي إلى فرضها على التكتل غير المكتمل للأديان والأعراق التي جرّتهم على مدار ستّ سنوات إلى حربين مدمرتين(3).

من الأشياء التي ستقع في يد أولئك الذين قد يتمّ استدعاؤهم للقيام بالمهمة العليا المتمثلة في خلق الازدهار في الأراضي الخصبة التي ظلت مهملة لأكثر من خمسمئة عام، لا يمكن إظهارها بوضوح أكثر مما هي عليه في مجال الإدارة القضائية. تعتمد قوانين العدل التركية، والمألوفة لجميع السكان ومعظم الزائرين في الإمبراطورية العثمانية، في نهاية المطاف على التشريعات الدينية المقدسة، لكن قامت تركيا بتعديل التزامها الصارم إلى حدّ ما بتلك التشريعات، باستحداث قوانين، فرضت من خلالها بعض الأحكام المشتقة في الغالب من قانون نابليون. وهكذا فإنّ القانون الجنائي وقانون الإجراءات الجنائية المعمول بهما في المحاكم التركية الحالية تستند إلى القانون الفرنسي، وعلى المنوال ذاته، قانون الإجراءات التجارية، الذي تسترشد به المحاكم التجارية. ومع ذلك، يرفض الأجنب قبول تطبيق القانون التجاري على أنفسهم، باستثناء الحالات التي لا تزيد قيمتها المادية عن ١٠ ليرات تركية، وبالنسبة للآخرين، يتمّ استخدام القانون المدني العادي، المجلة.

تستند المجلة إلى الشريعة الإسلامية، حيث تمّ وضع القانون الفعلي من قبل فقهاء أترك؛ إن جميع الأتراك هم من السنة، وينتمون إلى المذهب الحنفي من المذاهب الإسلامية، وبالتالي فإن هؤلاء الفقهاء يتبعون القانون الحنفي، وبذلك يكون الشيعة (وهم أكثر من ٩٠ في المئة من سكان بلاد الرافدين)(4) مع أتباع ثلاثة مذاهب سنية تقليدية أخرى غير الحنفي، وهي المالكي، والشافعي والحنبلي، مضطرين للخضوع للحكم الحنفي. تعاملت المجلة مع الدعاوى المتعلقة بالإيجارات والمبيعات والتبادل والعقود والأدلة والعديد من الأمور الأخرى، ولكن بقيت مجموعة كبيرة من الدعاوى المدنية التي كانت خارج نطاق اختصاصها. فجميع الخلافات الأسرية والزواج والطلاق وكلّ ما له علاقة بين الزوج والزوجة والطفل وجميع مسائل الميراث وقضايا الأراضي كانت من اختصاص المحكمة الشرعية وحاكم القانون الشرعي، الذي يكون برئاسة قاضٍ شرعي وليس قاضياً مدنياً. يركز القانون الشرعي على أحكام مستنبطة مع مراعاة ما يقتضيه اختلاف الحال، يمكن مقارنتها بقانوننا الذي يضعه القضاة، فعندما يكون القاضي في حالة شك، يجب عليه البحث عن حلّ في نصّ من التوراة أو الإنجيل. فيعتمد الحكم الشرعي على الرأي الفردي للقاضي، أو بشكل أوضح على تفسيره الفردي للقرآن والأحاديث، مع الأخذ في الاعتبار معرفته بتفسيرات العلماء السابقين.

هذه هي الخطوط العريضة لهيكلية القانون التركي، ونظرياً فإن جميع الخلافات التي تقع في الإمبراطورية العثمانية، من تلك التي تحدث بين التجار في إسطنبول إلى تلك بين الزعماء الأكراد في الروابي الجبلية أو بين شيوخ العرب في صحاريهم القاحلة، تكون تحت طائلة هذا القانون؛ لكن نظرة سريعة إلى أي ولاية في الإمبراطورية ستدحض هذه النظرية. لو أخذت على سبيل المثال، العراق، ستقتنع في تجربة صغيرة بأن أمر السلطان سيكون بلا قوة ولا حول على مسافة عشر ساعات غرب بغداد وربما بعد مسيرة أقل من ذلك إلى جنوب العاصمة العراقية، وقد يكون مدعاةً للسخرية على مسافة ساعتين إلى الجنوب الشرقي من دمشق، حتى عندما يكون الضباط ورجال الشرطة في الموقع للتأكيد على عظمة القانون، لا تكون المحاكم المدنية أو الجنائية أو الشرعية، ولا القاضي، الذي يقرر الحكم بين رجل وآخر أو يضع العقوبات عن المخالفات حسب تلك القوانين الموضوعية. فوراء كل الأدوات القانونية، هناك عقوبات عرف قديمة، مفهومة ومحترمة، لأنها كانت نتيجة طبيعية للحاجة الاجتماعية، فهي عقد اجتماعي حقيقي تمّ التسليم به من الماضي، هي حكمة الأسلاف للأحفاد الذين وجدوا أنفسهم في مواجهة مشاكل لا يغيرها مرور القرون، حيث يجلس زعيم القرية أو الأمير العربي «في المدخل» كما جلس قبلهم ملوك بابل ويهودا، وكانوا يحكمون بين شعوبهم دون شرائع أو تنظيمات. يستمع الشيخ في خيمته إلى شكوى الملتسبين الجالسين حول موقد القهوة، ويصدر حكمه بما قد يمتلكه من فطنة، مدعوماً بمراعاة العادات القبلية، داعياً شاربِي القهوة ليشهدوا أمام الله على قرار حكمه. كما أن السيد في القبيلة، الذي يتمتع بسمعة قوية بمعرفته أكثر من غيره من الرجال بما أنزل من أحكام الله -فضلاً عن الحكمة التي اكتسبها من الخبرة الطويلة في التحكيم- يقدم أحكامه إلى كل من يستشيرُه. وعلاوة على ذلك، تكون القرارات التي يتمّ التوصل إليها بشكل عام متوافقة مع العدالة الطبيعية، ومتوافقة دائماً مع عادات وأفكار الأطراف المتنازعة.

وهذا ما حدث، فعلى الرغم من الجهود الحثيثة التي يبذلها المسؤولون العثمانيون لسحب جميع القضايا، ولا سيما القضايا الجنائية، إلى محاكمهم، خارج الحدود المباشرة للمدن، إلا أن الجزء الأكبر من الجرائم والجنح التي يرتكبها البدو الرحّل، وسكان المدن، من القتل والسرقَة تحت السلاح، إلى الخلافات البسيطة، لا تصل أبداً إلى محاكم القانون التركية، فليس هناك ما يوفر لقمة العيش للعاملين من هيئات الدفاع وكذلك الشهود الذين يتمّ استدعاؤهم، فهم لا يحصلون على موارد أو تعويضات عن المصاريف والتأخير الذي تسببه الإجراءات القضائية. فضلاً عن جهلهم الكبير بطبيعة الإثنيات والأعراق المختلفة التي تحت حكمهم، كما يتضح من اندفاعهم الأعمى لجذب كل السلطات في قبضة واحدة. فلم يعمد الأتراك إلى إهمال منح وتفويض السلطة القضائية فحسب، بل عملوا على إحباط ذلك، مع أنهم لم يتمكنوا من منع الأمر فعلياً. فرسمياً، تمّ الاعتراف بسلطة الشيخ العربي في أمور القضاء في قبيلته، بأقل قدر ممكن، وربما كان القاضي التركي سيمتنع من الإحالة إليه؛ ولكن من الناحية العملية، سمحت له حالة الحكومة الضعيفة وغير الفعالة بالسير في طريقه، ليس بالضرورة من أجل الخير بل قد يكون من أجل الشر، مع بعض الجهود بين

الحين والآخر لإيقافه - وهي جهود تمّ تطبيقها بشكل عادل على ما كان ذا أهمية في الظروف الحالية تماماً مثلما طُبّق على ما كان ضاراً. لكن الطابع المتقطع بين الحين والآخر لهذه المحاولات جعلها أكثر ضرراً لجميع المعنيين.

ولكن تحت نظر الحكام الأكثر حكمةً وتعاطفاً، فإنّ نظام العدالة المحلية، القائم على الأرض، سيكون له أكثر من مجرد اهتمام اجتماعي. فهو ليس في حدّ ذاته سلاحاً قوياً في جانب النظام والسلوك الحسن فحسب، بل إنه دفع بنفوس الناس إلى عادات ذهنية تعود بالنفع على الدولة. حيث لا يمكن أن تكون هناك فوائد مالية من عملية التقاضي، فلا يوجد باعث للتقاضي الزائد في المحاكم، فعندما تُمارس الإجراءات بشفافية، فإنّ نزاهة المتقاضين ببساطة تكون معرضة لعدد أقلّ من الإغراءات، وفي الحقيقة، إن غياب أيّ حبّ للتقاضي من أجل ذاته، وصدق الأطراف المتخاصمة، قد تمّت ملاحظته بالفعل بإشادة المسؤولين البريطانيين في العراق الذين عملوا في الدائرة العدلية. ولا يقتصر الأمر على إلغاء الحاجة إلى عمل التحريات من جانب الشرطة، إلى حدّ كبير بسبب الصدق المحير إلى حدّ ما، عندما يعترف المتهم بجريمته، ولكن أيضاً قلة توفر وسائل متابعة التحقيقات المعقدة، فضلاً عن أن تنفيذ الأحكام التي كانت تصدرها المحاكم المرتجلة في بوابة القرية وعلى موقد القهوة قد اعتاد الناس عليها، واقتنعوا بتلك الطرق الفطرية. هذه ليست أقلّ فاعلية في حين أنها أقلّ مضايقة بكثير من المحاكم التحقيقية المتبعة والعقوبات المكلفة للقضايا الأكثر تعقيداً، دعنا لا نقول ذلك بالضرورة عن المجتمعات الأرقى حضارياً. في القضايا البسيطة، يتمّ قبول القسم كدليل بسهولة، خصوصاً في المناطق الريفية، وسيقتنع المدعي ويمضي في طريقه راضياً، إذا أقسم المدعى عليه ببراءته بعبارات وصيغة ملزمة، بأن يؤدي اليمين على القرآن أو على قبر رجل مقدّس معروف محلياً، أو حتى على الرجل المقدّس الحاضر شخصياً. «بحياة هذا السيد فلان...!»، وكلّ من يسمع الكلمات يعلمون بما لا يدع مجالاً للشك، أنه إذا حلف المتكلّم كاذباً ستجلب عليه عدالة السماء حكماً أعظم ولا يرحم من حكم البشر. وبدلاً من التقاضي في المحاكم، يتمّ اللجوء إلى التحكيم، حتى أن الرجوع إلى الشيخ يكون في الأساس لهذه الصفة؛ ويقبل الطرفان الحكم الصادر عن المحكم على أنه نهائي، وعادة ما يكون القرار نتيجة جهد صادق لميزان الحقائق والتعامل بشكل عادل بين الطرفين المتنازعين.

لقد ساعد الاعتراف العام بالتحكيم كعملية قضائية سليمة في حلّ أي مشكلة قد تكون محرّجة في التنظيم الإداري التمهيدي للأراضي المحتلة في العراق، فبدلاً من المحاكم الشرعية، التي تتعامل مع جميع الجوانب الأكثر ارتباطاً بالتعاليم الإسلامية، دعا القضاة الإنكليز فقهاء المسلمين إلى العمل كمحكّمين، حيث يتمّ الآن الفصل في القضايا التي كانت ستعرض على المحاكم الشرعية من قبل رجال تمّ اختيارهم لمعرفةهم بالقوانين الإسلامية، كما هو منصوص عليه في الكتب المقدسة، وفي حين إنه في زمن الأتراك لم يكن متاحاً سوى قاضٍ حنفيّ فقط، يمكن الآن لأتباع كلّ مذهب وطائفة إسلامية أن يختاروا قاضياً

قانونياً معتمداً لها حسب التعاليم الدينية الخاصة بهم، ويتمّ التصديق على قرارات حكمه بعد صدورها وتسجيلها في محاكم الإدارة البريطانية.

وبالطريقة نفسها، فإنّ الولاية القضائية للشيخ ميزة مهمة في إدارة المناطق البعيدة التي تفتقر تماماً إلى الطرق والسكك الحديدية، وتتميز إما بإحاطتها بالمياه بحيث لا يمكن الوصول إليها، أو العكس، بسبب غياب هذا العنصر الجوهري، الذي يصعب من دونه الطريق للوصول إليهم، وبالتالي يمكن إبقاء السلطة له مع المراعاة التامة لحقوق الحكومة السيادية.

من الواضح أن الإجراءات القضائية الابتدائية مناسبة فقط لمجتمع ما زال حتى الآن في مرحلة أولية من التطور، ولكن ليس أقلّ وضوحاً هو الافتراض المعاكس، مع أنه ربما يكون من الصعب وضع هذا الأمر في الاعتبار. فالرجال الذين يعيشون في الخيام، أو في بيوت القصب، هم تقريباً مثل حال البدو الرحّل، يعيشون في خيام مشابهة، هؤلاء الرجال لم يعرفوا أبداً الخضوع لأيّ سيطرة، سوى في الخيال الفارغ للسلطة التركية، فعلى الرغم من تأكيدات الوالي والقائد، كانت القبائل التي تسكن العراق، نادراً ما، أكثر طاعة للقيادة العثمانية من أولئك الذين يجوبون البراري العربية الشاسعة، هؤلاء الرجال الذين لديهم تقاليدهم من الاستقلال الشخصي المقيّد فقط بعاداتهم الخاصة جاهلون تماماً بالعالم الذي يقع خارج أراضيهم ومراعيهم، وغير مبالين تماماً بالمصالح والفرص التي يقدمها، والتي لن تنماشى في يوم ما مع المطامح الأوروبية، ولن ترحب بالطرق والوسائل الأوروبية؛ كما لا يمكن التسريع بنهضتهم، سواء كان ما يجب أن نعلّمه لهم سيضيف إلى حصيلة سعادتهم، أم إذا كان تعلم الدروس الضرورية سيجلب لهم صفة الحكمة كما يقال. إن التعليم يجب أن يكون طويلاً وبطيئاً إذا أريد له أن يكون ذا قيمة. في تطور تاريخنا البريطاني الخاص، من المحاكم الصورية إلى الماغنا كارتا (5) إلى البرلمان الإمبراطوري كان عملاً استغرق قرناً عدة، ومع ذلك احتوت الخطوة الأولى على البذرة التي جاء منها بعد ذلك كل شيء. لقد تقدمت القبائل في العراق ولكن لم يتعدّ ذلك نطاق المرحلة الأولى، المحكمة الصورية، وإذا أصبح تشكيل مصير العراق هو اهتمامنا في المستقبل، سيكون من الحكمة تجنّب أيّ تجارب تميل إلى دفعهم إلى مؤسسات عالية التخصص، وهي سياسة يمكن أن تجبر نفسها فقط لأولئك الذين لا يتعبون من الكلمات التي لا تعني أيّ شيء.

مراكز الحضارة

في بلاد ما بين النهرين

الحياة في الصحاري العربية، يشوبها القليل من التغيير على مرّ السنين، فقساوة الظروف الطبيعية تحصر العمل البشري في حدود ضيقة للغاية، قلة هطول الأمطار، وضآلة المياه

الجوفية، تمنعان أي نشاط زراعي واسع النطاق. وفي السهوب الوسطى الواسعة لشبه الجزيرة العربية والبراري الشمالية القاحلة، يصعب على الجنس البشري أن يجد مكاناً للعيش، حيث يُجبر البدو على سرح جمالهم ورعي قطعانهم في تلك الأراضي التي لا يتوفر فيها حتى أقل احتياجات الإنسان والحيوان الدائمة. ومنذ زمن سحيق، كانت القبائل من داخل الجزيرة تقوم بتوريد احتياجاتها من أقرب المدن الزراعية والواقعة على الأنهر، حيث يتمكن السكان هناك من الزراعة والإنتاج في حقول أراضيهم الخصبة وبساتين النخيل، التي بدورها تسد رمق سكان الصحاري القريبة. كما تزدهر في تلك المدن المهن والحرف اليدوية، فقد يجد رجال البدو فيها المواد النسيجية للملابس، والأسلحة والأدوات المنزلية المصنوعة من المعادن. تماماً كما كان رحيل إخوة يوسف إلى مصر لشراء الغلة عندما دفعهم موسم المجاعة الاستثنائية إلى نفاذ أسواقهم المعتادة، فإنّ العرب الرحّل اليوم ينزلون لحاجتهم الدائمة للمواد الغذائية في الصحراء إلى حدود سوريا وبلاد ما بين النهرين من أجل تلك المتطلبات الأساسية.

إن مدن شرق سوريا، دمشق وحمص وحماة وحلب كلّها أسواق لسكان بادية الشام، بل إن دمشق الآن كما كانت في الماضي هي عاصمة لسكان الصحاري كما هي وطن حضري متمدّن، بل مركز الحضارة العربية من جميع جوانبها. على الجانب الشرقي من بادية الشام، تلعب مدن نهر الفرات دوراً مشابهاً، لكن لم يكن على طول المجرى الجنوبي للنهر، أي من هذه المدن في الفترة السابقة للفتح الإسلامي. وعلى الرغم من أن النجف الحديثة هي امتداد للكوفة، وإحدى أولى مدن الحواضر الإسلامية، والكوفة نفسها نشأت من أنقاض الحيرة، عاصمة إمارة عربية صغيرة كانت، قبل زمن النبي، بمثابة حلقة وصل بين الجزيرة العربية البدوية والإمبراطورية التي حكمها الملوك الساسانيون من طيسفون. حيث يمكن العثور على هذه الروابط حتى اليوم، في جنوب وغرب نهر الفرات - في المستوطنات التي تتشابه في طبيعتها مع الواحات في قلب شبه الجزيرة العربية، أكثر من كونها تشكل مناطق زراعية لمدن سكنية قبلية، وهي ضرورية لاقتصاد شبه الجزيرة العربية كما كانت الحيرة نفسها، وعلى الأرجح لا تختلف كثيراً عنها، باستثناء الدرجة، عن ذلك الموقع القديم للأمراء المستقلين.

لعلّ من الجيد أن تقع أسواق البدو خارج حدود المناطق الزراعية، أو على الأقل على هامش المحيط الخارجي، فالرعاة وأصحاب القوافل البرية يتجاهلون حقول ومزارع الفلاحين، ويسمحون لحيواناتهم بالرعي على تلك المحاصيل التي يتمّ سقيها والعناية بها. هذا الإهمال قد يؤدي إلى الانتقام من جانب الفلاحين، وبالتالي يعكّر صفو السلم والأمن العام. ومن ناحية أخرى، فإنّ الوافدين من البدو حريصون على عدم التسلّل إلى البلدات المحكومة، أو أن يجدوا أنفسهم محصورين في المدن ومضطربين للخضوع للقيود التي تفرضها الحياة في المدينة. «شهر في دمشق مثل عام في الخيام،» كما وجد أحد الشيوخ الذي تمّ اعتقاله من قبل السلطات، حتى يسلم ضرائب الأغنام غير المدفوعة.

«والله! لم أستطع التنفس هناك».

أدركت الحكومة العثمانية مزايا جعل الأسواق بعيدة إلى حد ما عن المراكز الحضرية، وفضلت تأسيس المدن البعيدة. وبالمناسبة، فقد سهلت بذلك من بسط مجال نفوذهم؛ لأنها أتاحت لهم نوعاً من السيطرة على تلك المستوطنات الجديدة؛ وربما كانت العديد من المدن الأخرى ستنتشر على أطراف الصحراء، لو كان الأتراك قادرين على توفير الحماية الكافية لمجتمعاتهم في نزاعهم المبكر مع اللصوص والمهاجمين. ومن الأمثلة المفيدة على ذلك -مع أنها أثبتت فشلها- هي المحاولة التي قام بها قبل بضع سنوات أحد شيوخ منطقة الجوف في شمال شبه الجزيرة العربية، عندما استقر بشكل دائم في قلعة الأخيضر الكبيرة الخربة، والتي تقع على بعد حوالي ثماني ساعات إلى الغرب من كربلاء. كانت هناك ينابيع مياه في الوادي المجاور، وكذلك مقالع الجبس ومحاجر الصخور الجيدة القريبة في المتناول؛ قال الشيخ إنه كان مرهقاً من حكومة ابن الرشيد، وشيخهم الكبير في الجوف، فإذا استطاع والي بغداد مساعدته، فإنه سيبنى بلدة حول القلعة ويزرع بساتين النخيل ويبادل إنتاجه من الإبل مع منتجات بلاد الرافدين، وهي عملية قد تقدم خدمة مهمة في عملية إدارة النقل الرسمية؛ لكن الوالي كان تحت ضغوط ملحة أخرى، أو ربما لم تكن ذراعه طويلة بما يكفي لفرض الحماية على بعد ثمانية أميال من كربلاء؛ وفي النهاية، طرد الشيخ وقبيلته القادمة من الجوف من قبل القبائل المحلية، لحرص أبنائها على الانفراد بالمياه والرعي في وادي عبيد، وغيرتهم من هذا الدخيل. عاد الشيخ مع قومه إلى الجوف، وأصبح أكثر فقراً مما كان عليه عندما قدم.

بالطريقة نفسها، لكن مع نهاية تاريخية أفضل حظاً، نشأت في السنوات الأخيرة بلدة الخميسية الصغيرة، وهي في الوقت الحاضر قد وقعت في أيدينا. تقع إلى الجنوب من نهر الفرات، على بعد ساعات قليلة من سوق الشيوخ، البلدة القديمة للمشايخ والتي أهملت الآن من قبل قوافل البدو، لصالح الوصول إلى الخميسية التي يعود الفضل في إنشائها إلى شيخ منطقة القصيم في نجد في وسط الجزيرة العربية، الشيخ عبد الله الخميس، الذي أطلق على المدينة اسم الخميسية على اسم والده. في السنوات الأولى كانت محفوفة بالمخاطر، لكن عبد الله وأتباعه -وجميعهم من السنة من نجد- بنوا لأنفسهم حصناً صغيراً صمدوا فيه ضد القنص الليلي لأبناء القبائل المجاورة، الذين رأوا في عمل النجديين بإنشاء هذا الملاذ الصغير للاستقرار والعمل، خطراً على موقعهم في الصحراء المفتوحة. نما هذا المكان تدريجياً، وجاء المزيد من الرجال من نجد، وبنوا منازلهم حول حصن عبد الله، وأصبحوا تحت حمايته. كما قدم من نهر الفرات، أيضاً، بعض رجال القبائل الشيعية إلى الخميسية وتخلوا عن شيوخهم، وارتبطوا بعبد الله. أقامت الحكومة العثمانية مركزاً عسكرياً هناك، وأصبحت المستوطنة الصغيرة قوية بما يكفي لحماية نفسها من جميع المهاجمين، في رفض السابليين والقادمين من القوافل البدوية أو السماح لهم.

والأهم من ذلك، ومن أصل أقدم بكثير، بلدة الزبير جنوب شرق الخميسية وغرب البصرة، وكلا المكانين سنربطهما قريباً بالسكك الحديدية. الزبير، هي البصرة القديمة، يعود تاريخها إلى الأيام الأولى للفتح الإسلامي. مثل القاهرة والكوفة، كانت واحدة من مدن المعسكرات التي وضعتها جحافل المسلمين المنتصرين، لتناسب الاحتياجات الأولى للاحتلال، وأطلقوا عليها اسم مصر، واستمر هذا اللقب حيث سميت الأرض كلها بالعربية مصرًا حتى هذا اليوم. ومثل جميع الأمصار، كانت منطقة الزبير مفتوحة، تحدها أولاً الخنادق ثم نصبت الرواق ذات الأعمدة، لتكون بمثابة مسجد للتجمع، ومكان الاجتماع المشترك للصلاة الأسبوعية والنصائح التي كان يُستدعى إليها المؤمنون بالعقيدة الجديدة كل يوم جمعة في منتصف النهار. لا تزال هناك بقايا من المئذنة والصور من الطوب بين أكوام من الخرائب التي تظهر أن المسجد الكبير لم يكن بعيداً عن المجرى السابق لنهر الفرات، لأنه كما أمر الخليفة عمر الخطاب، تمّ بناء الأمصار على مسافة قريبة من الماء من ناحية؛ والمراعي الصحراوية من جهة أخرى، ولكن عندما غيّر النهر مساره غيّرت البصرة موقعها، تحركت شرقاً، ولم تترك شيئاً في الموقع القديم سوى بلدة صحراوية صغيرة، تسمى الآن الزبير على اسم محارب شهير بعد الإسلام تحتوي على قبره.

مع تحول نهر الفرات، لم يعد المكان أكثر من واحة قليلة المياه، قائمة بين أكوام كبيرة من الخرائب، لكنها نظيفة ومنعشة مثل جميع المدن في الهواء الجاف النظيف للصحراء؛ لا تتوفر فيها مياه الآبار الحلوة، فيتم إحضارها من خارج البلدة، ولا توجد في الزبير أراضٍ للزرع، سوى عدد قليل من حقول القمح وبعض بساتين البطيخ المشهورة. تقع مزارع البطيخ حول البرجسية وحقول القمح في الشعبية التي تغمرها الآن الخنادق البريطانية والعثمانية، والواقيات الخشبية التي تغطي قبور الجنود البريطانيين الذين سقطوا في معركة الشعبية في نيسان (أبريل) ١٩١٥. وهنا يبدأ فصل جديد من تاريخ الزبير الطويل.

بناة المدينة هم رجال من نجد وما زالوا تقريباً سكانها الوحيدين؛ يأتي إليها التجار من وسط الجزيرة العربية ليستقروا فيها، أو قد يأتي البعض من أفراد عائلة ما يفتح متجرًا، ويتواصل مع أقاربه في القصيم أو سدير. أحد أشهر العائلات التجارية من وسط الجزيرة العربية، لديها ممثلون في جدة ودمشق والخميسية والزبير، فليس هناك من رجال القبائل من لا يعرف عائلة البسام. أسلاف الشيخ الحاكم الحالي جاءوا من حريملاء في سدير وكانوا من رعايا ابن سعود حاكم نجد، وينتمون مثله إلى قبيلة عنزة القوية. إلى جانب سكان البلدة، هناك حوالي مئتين من خيام البدو الرحّل، ومجموعات من القبائل المجاورة المرتبطة بمجتمع الزبير وتدين بالولاء لشيخها. في الصيف تقطن بالقرب من الآبار، وتحمي أنفسها من الحرارة الشديدة تحت الأكواخ اللطيفة من حصير القصب، وهي إحدى المساهمات في الهندسة المعمارية لقبائل بلاد الرافدين؛ ولكن عند هطول الأمطار، يقود أبناء القبائل أغنامهم وجمالهم -مع سكان الزبير- إلى المراعي الصحراوية الآخذة في الظهور. إن الطريقة التي يتم فيها قبولهم تحت رعاية الشيخ سهلة مثل تلك التي تتبّعها العشائر في واحات الجزيرة العربية، حيث يطلبون ويحصلون على إذن لاستخدام المراعي

ونصب خيامهم في المنطقة، وبعد أن يقيموا في المكان لبعض الوقت، يتم الاعتراف على أنهم يخضعون إلى سلطة الشيخ وليس إلى أسياد قبيلتهم الأصلية، ويصبح الشيخ مسؤولاً أمام القبائل الأخرى والحكومة عن حسن سلوكهم، وإذا تعرضوا لاعتداء ونهبت ممتلكاتهم، فهو الذي يتفاوض لاستعادة حقوقهم، حتى لو كانت القبيلة المعتدية، هي القبيلة التي كانوا ينتمون لها سابقاً. عملية تغير الولاء للقبائل، الواضحة جيداً في مكان مثل الزبير، لا تقتصر على مدن أطراف الصحراء أو في الواحات، فجميع القبائل تم تشكيلها بطرق مماثلة، بعضها مؤخراً، والبعض الآخر في فترات بعيدة جداً؛ وسواء كانت حديثة أم قديمة، لا يغير حقيقة كونهم تكتلاً موحداً من تحالفات قبلية مختلفة، وبلغة البدو ليست لديهم أصول مشتركة. ومع ذلك، فهذه القبائل المتجانسة سوف تقبل بسهولة مجموعة أخرى غريبة عنها، والتي ستفقد بمرور الوقت كل اتصال مع أصولها القبلية، على الرغم من أنها عادة ما تحافظ على بعض الاختلافات الطفيفة في العادات التي تميزها عن القبائل التي تبنتها؛ وهكذا فإن اندماج العشائر المتباينة تحت حكم شيخ مشترك يندرج ضمن العرف القبلي.

على العكس من الخميسية، فإن القبائل الرافدينية غائبة تماماً عن الزبير، ربما عدا عدد قليل من أصحاب الحمير الذين ينتقلون بين الزبير والبصرة. وكونهم نجديون، فإن الزبير هي بالكامل سنية المذهب، وهم يتزوجون فيما بينهم، أو يحصلون على زوجات من الواحات في الجزيرة، ويحافظون بالتالي على أصولهم النقية، وأبدانهم النحيلة، والذكاء الفطري للبدو. وحتى الحكومة التركية، التي لم تكن متعاطفة في العادة مع مثل هذه الأمور، تقبلت تلك العادات البدوية، ومنحتهم نوعاً من الاستقلالية في ظل حكم شيخهم، ولم تحاول فرض الخدمة العسكرية عليهم، فيعفى منها جميع البدو. وإذا كانوا قد عانوا قليلاً من التدخل العثماني، فإنهم لم يستفيدوا إلا قليلاً من الحماية الرسمية. تمتع الشيخ الحاكم في المدينة بسياسة خارجية خاصة به مع بدو الصحراء، ووفر الأمن لشعبه بالوسائل الدبلوماسية على قدر الإمكان. لقد كان حازماً وقوياً ما جعل القبائل لا تتشاجر عن طيب خاطر مع أصحاب المدن التي اعتادوا اللجوء إليها للتسوق.

هذه المدن الحدودية الحضرية - وإن كانت تخدم البدو - فإنها ليست أقل أهمية إدارياً من المدن المستقرة. تمثل الإدارة فيها عيونا وأذناً يستطيعون من خلالها رؤية وسماع ما يتجاوز حدود البلدة؛ فمن طبيعة منصب شيخهم، ضرورة أن يكون على اتصال وثيق بمجريات الأحداث في الجزيرة، من خلال مصادر المعلومات التي لا حصر لها، فكل قافلة قادمة تجلب له أخباراً من المناطق النائية في شبه الجزيرة العربية، وكل سائر متجول أو بائع يأتي لبييع حمولته من الحطب ليشتري بالعائدات كيساً من التبغ وحفنة من التمر، يسرد له القيل والقال من الأخبار المحلية، وأين يخيم فلان وفلان، وإلى أين رحل هذا الآخر، ومن الذي تتضاءل أو تتزايد سلطته، وما الاضطرابات التي تختمر وما الترتيبات الجديدة التي حدثت. في مجلس قهوة الشيخ، تسمع أنواع الثثرة، فإذا كانت له خبرة في مثل هذه الأمور، يمكنه وزنها وتفسيرها ونقلها، حتى وإن كان بعيداً جداً، إلى أقرب حاكم محلي. سيجد هذا الأخير نفسه مُزوداً، ليس فقط بأفضل وأحدث المعلومات المتعلقة

بأطراف مقاطعته، ولكن أيضاً مع وسيط تمكّنه علاقاته الودية مع القبائل المنعزلة من إجراء العديد من التفاهات المناسبة التي ستكون خارج نطاق سلطته الحكومية، أو تلك التي تحدّ من كرامته الشخصية الرسمية الرفيعة، وبالتالي المساهمة في الحفاظ على السلام والتفاهم الجيد معهم وتأمين الطرق التي يتعذر تحصينها ويصعب حمايتها.

الشيوخ المستقلون

في شرق الجزيرة العربية

تحدّ الأراضي الزراعية التي يسقيها النهران العظيمان لبلاد ما بين النهرين، من الجنوب، ومن الغرب الصحراء التي هي موطن القبائل البدوية. ومع ذلك، فإنّ الخطوط الفاصلة بين البداوة والفلاحة ليست حدوداً إثنولوجية، ولا هي حدود اقتصادية أو سياسية محددة بدقة. فالمزارعون في حقول الشلب وبساتين النخيل هم من الأصول العرقية نفسها التي ينتمي إليها الهائمون في الصحراء. في الماضي -وغالباً ليس في الماضي السحيق- سكن أسلافهم في الخيام السوداء، ولم تخضع عاداتهم لتغيير جذريّ كبير، ولم تتبدل طرق تفكيرهم. فبعد هطول الأمطار في فصل الشتاء، سيعود نصف سكان القرية إلى الحياة البدوية؛ مع خيامهم وأدواتهم المنزلية التي تحملها الحمير، سيخرجون قطعانهم إلى مناطق الرعي البعيدة، حيث سيبقون حتى يذبل العشب ونفاد برك المياه. وتمتد ضيافتهم بدورها إلى جيرانهم في الصحاري، الذين يأتون في ذروة الصيف إلى المياه الدائمة وإلى الاكتفاء المرضي من المراعي بالقرب من الأنهار.

لكن بالنسبة للقبائل البعيدة في داخل الجزيرة يتم الاعتماد على المناطق الزراعية، أكثر بكثير من مجرد زيارة صيفية، فالصحراء لا تُنتج الكثير من ضرورات الحياة، ولا حتى الواحات في وسط الجزيرة العربية تدعم نفسها بنفسها، ولا توجد في أيّ مكان صناعات للأدوات الأولية التي يحتاجها البدو أو الملابس التي يرتدونها، أو الأسلحة التي يدافعون بها عن أنفسهم. من أجل كلّ هذه الضروريات، يجب أن يأتوا إلى المدن الداخلية والموانئ، ويرتبطوا بعلاقة جيدة مع سكّانها ومع الحكومة التي قد تمنعهم من الوصول إلى هذه الأسواق. وبالتالي، لا يمكن السيطرة على الأجزاء النائية من شبه الجزيرة العربية من الخارج فحسب، بل يجب على حكام البلدان المستقرة أن يعقدوا بشكل حتمي علاقات اقتصادية وسياسية مع الشيوخ المستقلين الذين لا يملكون سوى توفير مطالبهم.

قبل احتلال البصرة، كانت الحكومة البريطانية على اتصال فعلي بزعماء شرق الجزيرة العربية، لكن باستثناء معاهدة سابقة مع ابن سعود في العام ١٨٦٦، كانت تعاملاتنا مقتصرّة مع تلك المناطق المحاذية للبحر، مع سلطان مسقط، وشيوخ الإمارات على الساحل المتصالح، وشيوخ البحرين والكويت، حيث عقدنا اتفاقيات معهم منذ فترة طويلة، بعضها يعود تاريخه إلى العام ١٨٢٠، وكانت أهدافنا الرئيسية في كلّ حالة هي الحفاظ على الأمن التجاري في الخليج، ومنع تجارة الرقيق والسلاح. التقت مصالحننا بشكل أكبر مع مصالحي شيخ الكويت، في الطرف الشمالي للخليج، عندما بدأت بعض القوى الأجنبية في العام ١٨٩٩ تحوّل اهتمامها إلى الكويت باعتبارها محطة محتملة لخط سكة حديد بغداد من البحر المتوسط. رأى الشيخ في هذا المشروع ضربة قاصمة للاستقلال الواقعي الذي كان قد نجح في الحفاظ عليه؛ وكذلك رأت الحكومة البريطانية فيه بداية خطرة للسيطرة

التركية الجرمانية على المياه التي كانت تحت سيطرتنا ونشاطنا منذ أكثر من قرن، ولا تزال تجارتنا ذات قيمة أكبر من تجارة أي بلد آخر. أمضت الحكومة البريطانية بضع سنوات من التهدئة مع المتطلبات العثمانية، والتي لم يكن شيخ الكويت يشعر خلالها أبداً باليقين فيما إذا كنا سنؤيده في آخر المطاف أو نتخلى عن دعمه في جهوده لصدّ الادعاءات التركية، وإسناده بنفوذنا إلى جانبه، فضلاً عن منحه الحماية الاسمية من قوى دولة أجنبية.

قبل عام ونصف من اندلاع الحرب مع تركيا، كان هناك عاهل آخر وعلى مدى سنوات ماضية عدة يبحث عن فرصة لتوثيق العلاقات مع بريطانيا العظمى، فرض نفسه في خطى رؤيتنا السياسية، إنه ابن سعود حاكم نجد، تلك الواحات والأراضي في شرق الجزيرة العربية، كان قد سيطر على منطقة الأحساء التي كانت سابقاً في حوزة عائلته، ووصل إلى شواطئ الخليج، حيث طرد الحاميات الثلاث الصغيرة التي كانت تحت حكم السلطان العثماني. قد يكون عبد العزيز بن سعود هو الشخصية الأكثر لفتاً للانتباه في التاريخ العربي الحديث، عرف كلّ تقلبات الثروة، على الرغم من أنه لم يتجاوز منتصف العمر بعد. أخرج هو ووالده من الرياض، عاصمتهم، من قبل ندهم في الشمال أمير جبل شمر، محمد بن عبدالله الرشيد، الذي كان الشخصية المهيمنة في عصره في شمال ووسط شبه الجزيرة العربية. كان ابن سعود لسنوات عدة يعيش طريداً في المنافي، باحثاً عن ملجأ لفترة ما في البادية السورية، وفي خيام قبيلة عنزة الكبيرة، التي يدعي القرابة منها، بينما حلّ والده ضيفاً على شيخ الكويت. ولكن عندما توفي محمد بن عبدالله الرشيد، في عام 1897، ولم يخلفه في مكانه رجل يحمل مؤهلاته العظيمة لخلافته، سارع عبد العزيز بن سعود في اغتنام الفرصة بمساعدة شيخ الكويت، سافر إلى الرياض مع مجموعة صغيرة مختارة من الأتباع، واستعاد المدينة بجرأة كبيرة. لقد اشتهرت بالفعل قصة دخوله الرياض في جوف الليل، والإطاحة السريعة بولي عهد محمد الرشيد، وبعدها كانت السنوات اللاحقة من الصراع والمجابهة مع قبائل شمر، والتي انتهت بإعادة فرض سيادته على وسط الجزيرة العربية، وأصبحت الملحمة على شفاه رواة القصص والأغاني البدوية، وعندما اجتاحت هذه المعارك العديدة منطقة الأحساء، شعرت الحكومة العثمانية بكثير من القلق. كان الأتراك قد أغدقوا الهدايا على محمد بن عبدالله الرشيد وخلفائه وعملوا بجدّ على إدامة العلاقة معهم، على أمل الحفاظ من خلالهم على قدر من التأثير في وسط الجزيرة العربية. لم يكن نجاح ابن سعود بمثابة ضربة مباشرة لمطالبهم بالسيادة فحسب، بل كان بسط سلطته على الخليج يشكّل أيضاً خطراً بارزاً يتمثل في فتح الصحراء أمام النفوذ المخيف للمراقب الرابض على السواحل، بريطانيا العظمى.

لم يكن بمقدور بريطانيا الحفاظ على سياستها المتمثلة في عدم التدخل في شؤون العرب في وسط الجزيرة العربية، أو عدم التقرب في نهاية المطاف من ابن سعود الذي وصل إلى ساحل البحر، وإقامة علاقات مباشرة معه، كما كان يخشى وكما يتمنى الأتراك، فعند اندلاع

الحرب لم يعد هناك اعتبار في نظرنا للأتراك، وبمجرد التأكد من صداقتنا، ضرب ابن سعود بعرض الحائط ولاءه للسلطان.

بعد احتلال البصرة، كان لا بد لنا من مواجهة ابن الرشيد وقبائل شمر؛ فعلى الرغم من أن تأسيس سكة حديد المدينة المنورة أتاح السفر من حائل إلى دمشق في أقل من أسبوع، إلا أن التعامل التجاري لقبائل ابن الرشيد هو أساساً مع أسواق المدن على نهر الفرات. عند كل ربيع، تقوم قوافل الأمير، التي قوامها ٥٠٠ أو ٦٠٠ جمل، بمسيرة أسبوعين من حائل إلى العراق لملء خزائهم من القمح والزيت والشاي والقهوة والسكر التي يتطلبها كرم الضيافة اللامحدود في قصره، وكذلك لشراء الملابس التي تقدم لكل رجل في القبيلة خاضع لطاعة ابن الرشيد، حسب رتبته وأهميته. كما يزود تجار النجف بواسطة قافلة من الجمال، شركاءهم التجار المقيمين في حائل بما يحتاجونه من البضائع والمواد التجارية الأخرى. لقد وقعت في أيدينا بالفعل اثنان من تلك الأسواق التي ترتادها قبائل شمر؛ في البلديتين الصغيرتين الزبير والخميسية، وهما على حافة الصحراء، وتعتمدان في كيلهما على كل من مدينة البصرة الكبيرة وسوق الشيوخ، على نهر الفرات، والتي أصبحت تحت سيطرتنا. كما أن ميناء الكويت البحري يُدار من قبل حليفنا التام. لذلك، إذا لم يكن ابن الرشيد على استعداد للحفاظ على السلام معنا، فسوف يضطر لطلب إمداداته من المناطق في أعلى نهر الفرات، وحتى هناك بدأ يجد صعوبة في الوصول إليها، فنحن نحمل عنق الزجاجة في شرق الجزيرة العربية عن طريق البحر والبر.

لقد عانت قبائل شمر منذ وفاة شيخها محمد بن عبدالله الرشيد من قيادة غير فاعلة وغير حكيمة ومن الغيرة والتنافس العائلي، ما أدى إلى اضطرابات دامية في بيت الحكم، فالأمير الحالي هو فتى في الثامنة عشرة من عمره، غير مدرب على فن الحكم، وغير متحكم في المزاج، ويفتقر إلى المستشارين الحكماء؛ إنه متمسك بشكل أعمى بالسياسة القديمة، التي أثبتت حتى الآن أنها مثمرة للغاية لهم، بالاعتماد الوثيق على تركيا، ولا يظهر أي ميل تجاه مشاعر العرب القومية، التي يتغنى بها شيخ الكويت وحاكم نجد بين الحين والآخر، لأسباب قد لا ترتبط ارتباطاً وثيقاً بإحياء القومية العربية. ففي ظل حكم الأمير الضعيف، انقسمت القبيلة على نفسها كما هو متوقع، لكن شمر قبيلة فخورة وشجاعة، تمتلك نصيبها الكامل من فضائل العرب، وتتبع مثلهم العريقة في الأخلاق البدوية، ويجب أن يكون لهم حضور دائم وفاعل في السياسة العربية، وقد يعيد لهم دوران العجلة الكثير من تفوقهم السابق.

هناك مجموعة قبلية كبيرة أخرى تتواجد على الفرات، هي قبيلة عنزة الأقوى من بين التجمعات القبلية البدوية التي تروم بادية الشام من حدود بلاد ما بين النهرين إلى الحدود الشرقية لسوريا، يتصلون شمالاً إلى حلب تقريباً، وفي تلك المناطق الشمالية يعبرون نهر الفرات ويحتلون المراعي الغنية لنهر الخابور. وعلى هذه المساحة الواسعة، يتوزع النفوذ إلى أكثر من شيخ واحد؛ وتنقسم قبيلة عنزة إلى أربعة أقسام رئيسية، يصل منها العمارات

إلى حدود العراق، وشيخهم الكبير فهد بك بن هذال، هو اسمياً شيخ المشايخ لكل قبيلة عنزة، على الرغم من أن جاره الغربي ابن شعلان، الذي يقود الجانب السوري من الصحراء، هو شخصية ذات شهرة أكبر. وعلى العكس من أمير جبل شمر وحاكم نجد، فإن فهد بك الهذال ليس له مكان إقامة ثابت، وهو يعيش مع قبيلته البدوية الفعلية المتنقلة، حيث يسرحون نحو المكان الذي تقوده قطعانهم في الرعي. ومع ذلك، فإن القلاع المتينة لابن سعود وابن الرشيد ليست أكثر إثارة للإعجاب للخيال من المخيم العظيم للشيخ فهد. في الربيع قد تجده في السهوب العشبية في بادية الشام، مع بضع مئات من الخيام منتشرة حوله على مساحة واسعة، في أمان تام من أي اعتداء، ولأن قبيلة عنزة هي من أعظم القبائل البدوية في تربية الجمال، فقد تمضي ساعات عدة من المسير بين قطعان الإبل حتى تصل إلى مقر الشيخ العجوز الذي يجلس على سجاد فخم في خيمة الضيوف، وخلفه صقره وكلبه السلوقي، حيث تبرز صورة العزة والكرامة القبلية التي لا يمكن أن تنافسهم فيها المدن المحاطة بالأسوار والقاعات الكبيرة الفخمة لأمرأ وسط الجزيرة العربية وقواتهم من العبيد المسلحين.

نادراً ما تأتي قبيلة العمارات جنوباً، إلى السماوة مثلاً على نهر الفرات، فمدنهم للتسوق هي كربلاء والنجف ومدن أخرى أصغر في أعلى النهر؛ كما تصل إليهم أيضاً كمية معينة من البضائع السورية - من ألبسة وبضائع قطنية - عبر نشاط التجار الدمشقيين، لكنهم يعتمدون على شمال العراق، وبالتالي على من يحكم فيها. فهد بك الهذال نفسه يمتلك بعض بساتين النخيل الثمينة التي تُروى من نهر الفرات، ولذلك من يسيطر على النهر لديه بعض النفوذ على مصادر ثروته الخاصة.

وباستثناء العلاقة الدائمة والصداقة المتينة مع ابن الرشيد، فإن الحكومة العثمانية لم تتبع سياسة ثابتة في تعاملاتها مع الشيوخ العرب شبه المستقلين، تماماً محاكاة لفن حكم السلطان عبد الحميد، فلم يكن الباشوات من الولاة العثمانيين يتعاطفون مع البدو العرب الرحّل، ولا الحكام نصف المتعلمين من إسطنبول أو سالونيك، الذين ضيعوا ثروات الدولة من خلال جمعيتهم الاتحاد والترقي، لا ينظرون إليهم، سوى أنهم قبائل بربرية متوحشة. فإن ظهر في العراق حاكم قوي سيعاقبهم في عهده، قد لا يحدث ذلك دون سبب تام؛ لكن ما إن يأتي بعده حاكم ضعيف، حتى تسنح لهم فرصة لمزيد من أعمال الغزو والسلب. ربما قيدهم الوالي ناظم باشا بحزم إن لم يكن بحكمة، لكن عدم الاستقرار والنزاع على السلطة العليا في تركيا، تسببا في الإطاحة به بعد تسعة شهور من قبل جمعية الاتحاد والترقي. ومع ذلك، فإن مهمة السيطرة على القبائل البدوية لا ينبغي أن تكون واحدة من أصعب مشاكل إدارة بلاد ما بين النهرين. فإن فصّ النزاعات القبلية والتهديدات بالحرب كما تسمع في داخل الخيام، والتنازع على الأراضي الصحراوية المقفرة، وسقوط الإمبراطوريات القبلية، لا تهمّ حكام المناطق المستقرة. يكفي بالنسبة لهم أن تُظهر القبائل البدوية الالتزام الفعلي بالحدود وعدم الاعتداء على الطرق والسكك الحديدية والحقول الزراعية الخارجية. وربما من السهل تحديد بعض المكافآت مقابل مراعاة مثل هذه الاتفاقات، فهي

مألوفة ومُحترمة على مرّ الزمن في جميع العلاقات مع البلدان القبلية؛ وبالطبع سيتمّ إغلاق الأسواق في العراق والخليج كانتقام سريع ومؤكّد متى ما حصل أيّ خرق لهذه الالتزامات.



الأمير عبد العزيز ابن سعود

يحمل على صدره وسام الامبراطورية الهندية (K.C.I.E) عند زيارته البصرة
في ١٩١٦

حاكم الصحراء

شكّلت زيارة ابن سعود إلى البصرة في السابع والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٦، حدثاً مهماً من أحداث حملة بلاد ما بين النهرين، كانت ذات أهمية كبيرة للمراقبين، كما هي لأولئك المهتمّين في دراسة الشؤون السياسية في الجزيرة العربية. فعلى مدى القرن التاسع

عشر، تركزت الأحداث التاريخية في المناطق الداخلية من شبه الجزيرة العربية، على التنافس بين أمراء شمال وجنوب نجد، ابن الرشيد وابن سعود. فعندما كان عبد العزيز الممثل الحالي لبيت سعود، صبياً في الخامسة عشرة من عمره، كانت قوة آل الرشيد قد بلغت ذروتها؛ ما دفع الأمير الكبير محمد بن عبدالله الرشيد، الذي صيّف شارلس داوتي على مضض، إلى إقصاء أمراء آل سعود إلى المنفى واحتل عاصمتهم الرياض. فأمضى عبد العزيز مدة أحد عشر عاماً، يتجرع طعم مرارة الشدة والحسرة، ولكن في عام ١٩٠٢، رأى شيخ الكويت، على رأس الخليج، وهو نفسه في عداوة مع الرشيد، في الأمير الشاب سلاحاً واعداً وأعطاه فرصته. وبقوة قوامها نحو ثمانين من المحاربين على جمال زودتهم الكويت، انطلق عبد العزيز إلى الرياض وفاجأ حامية ابن الرشيد وقتل ممثله وأعلن سيطرته على المدينة واستعادة حكمها. قصة مغامرته الجريئة أصبحت جزءاً من موروث الذكريات البدوية. وصول تلك الفرقة الصغيرة عند الغسق إلى بساتين النخيل جنوبي البلدة، والتوقف حتى حلول الليل، وتسلق سور القصر من قبل عبد العزيز وثمانية من أتباعه، وفي لحظة بطولية أوقف العدو النائم وقضى عليه؛ وعند الفجر فتح أبواب المدينة أمام قواته المنتصرة. لكن الصراع لم ينته مع الاستيلاء على الرياض، فقد كان يتجدد عاماً بعد عام، وبذلك استعاد عبد العزيز أراضي آبائه وصنع لنفسه اسماً ملاً صدى الصحاري. بعد مدة، أي في عام ١٩١٣، دفعته طاقته المتأججة إلى الدخول في مجالات ذات أهمية سياسية أوسع، حين استولى على منطقة الأحساء، وهي تحت سيطرة الحكومة التركية، وقبلها كانت تابعة للرياض، وطرده الحاميات العثمانية منها، ووصلت قواته على ساحل الخليج العربي.

كان عبد العزيز على علاقة صداقة شخصية مع الكابتن شكسبير، وكيلنا السياسي في الكويت، وقد جعل وصوله إلى الساحل على اتصال مباشر مع بريطانيا العظمى؛ ولكن قبل طرح القضية الصعبة المتعلقة بعلاقته الوثيقة مع إسطنبول، سهّل لنا اندلاع الحرب مع تركيا واجب الحفاظ على موقف محايد. في شتاء ١٩١٤ - ١٩١٥ شقّ النقيب شكسبير طريقه للمرة الثانية إلى نجد، وانضم إلى ابن سعود الذي كان يسير شمالاً لصدّ هجوم ابن الرشيد المدعوم من الأتراك. اجتمعت القوتان في نهاية شهر كانون الثاني (يناير) في اشتباك غير حاسم أصيب فيه النقيب شكسبير وقتل، رغم أنه كان حاضراً بصفة غير قتالية. لقد فقدنا فيه ضابطاً شجاعاً جعلته معرفته بوسط الجزيرة العربية ومهاراته النادرة في التعامل مع رجال القبائل مفيداً ومميزاً. لقد عاشت مآثره بعده طويلاً. وبعد أقل من عام، التقى ابن سعود بالسير بيرسي كوكس، الحاكم السياسي العام في الأراضي العراقية المحتلة، والوكيل السياسي الرئيسي في الخليج، حيث أبرم اتفاقية رسمية مع بريطانيا العظمى، وارتقت علاقته الوثيقة بنا إلى التأكيد على ذلك علناً في اجتماع للمشايع العرب الذي عُقد في الكويت في ٢٠ تشرين الثاني (نوفمبر)، وتمّ منحه وسام الإمبراطورية الهندية (K.C.I.E). وفي تلك المناسبة التي لا تُنسى، اجتمع ثلاثة زعماء عرب أقوياء، هم شيخ المحمّرة الذي كان أحد رعايا إيران ومن أصل عربي، مع شيخ الكويت وابن سعود حاكم نجد، وقفوا جنباً إلى جنب في اتفاق صداقة وأعلنوا مساندتهم للقضية البريطانية. وأشار ابن سعود في خطاب عفوي لم يكن متوقعاً إلى أنه في حين سعت الحكومة العثمانية إلى

تفتيت الأمة العربية وإضعافها، كانت السياسة البريطانية تهدف إلى توحيد وتقوية قاداتها، وكان الحاكم السياسي العام يستمع إلى تلك الكلمات التي سيتم تكرارها ومناقشتها حول كل مواقد النار في خيام الصحراء، وهي بالطبع حصيلة ثلاث سنوات من العمل الصبور في الخليج تكمل بالنجاح.

بالكاد يبلغ ابن سعود الآن الأربعين من عمره، رغم أنه يبدو أكبر من ذلك بسنوات، إنه رجل يتمتع بلياقة بدنية عالية، طوله يزيد عن ست أقدام، ويجعلك تشعر بأنه شخص ترتسم فيه ملامح القيادة. ومع أنه ذو بنية جسدية أكبر من شيوخ البدو العاديين، إلا أنه يتمتع بكل ميزات الأصالة العربية، والمظهر الجانبي المميز بقوة، له أنف سميك، وشفاه بارزة وذقن طويلة رفيعة تبرزها لحية مدببة. يدها جيدة بأصابع نحيلة، وهي سمة شبه عامة للقبائل العربية النقية، وعلى الرغم من طول الفارع وسعة منكبيه، فإنه يعطي انطباعاً شائعاً عند البدو، في ذلك الكلل الغامض، ليس على المستوى الشخصي، بل على العرق البدوي بشكل عام، نتيجة الإرهاق الحياتي لشعب قديم ومتحفظ، أثرت ظروف الحياة الثقيلة على قواه الحيوية واستعارة القليل من خارج حدودهم المحصنة. إن حركة ابن سعود المتأنية وابتسامته البطيئة الجميلة والنظرة التأملية لجفون عينيه الثقيلة، على الرغم من أنها تضاف إلى كرامته وسحره، قد لا تتوافق مع المفهوم الغربي للشخصية القوية. ومع ذلك، يعرف عنه قدرته البدنية الاستثنائية في التحمل، رغم قساوة الحياة في شبه الجزيرة العربية، وربما قلة من الخيالة أو الهجانة، من لهم القدرة على منافسته في الفروسية، لقد أثبت كفاءته كقائد جسور لقواته غير النظامية، فضلاً عن صفاته كعسكري يتقن فن الحكم الذي يحظى بتقدير كبير بين رجال القبائل؛ وربما القول الفصل في الإطراء حين يقال إنه «رجل دولة».



بيرسي كوس مع الملك عبد العزيز بن سعود في البصرة ١٩١٦

يمثل ابن سعود نموذجاً تاريخياً للحاكم والسياسي والمحارب، وهؤلاء الرجال يمثلون الاستثناء في أي مجتمع، وهم يظهرون دوماً في ميدان البيئة العربية، تلبية لمتطلباتهم الحياتية، لقد قدموا المحاربين والقادة العسكريين للفتوحات الإسلامية، ونجحوا في المكان ذاته الذي يقطنه ابن سعود الآن، ولو كان قد عاش في عصر أكثر بدائية، ربما كان ينجح، ثم يفشل، تماماً كما قد يفشل في مهمة جسيمة لتحويل مجتمع قبلي بالأساس إلى دولة موحدة ومتجانسة ذات طبيعة دائمة. كان محمد بن عبدالله الرشيد المثال الكلاسيكي في الجيل السابق لجيلنا، لقد مات منذ عشرين عاماً، لكن شهرته ما زالت باقية؛ وبالمثل جمع عبد العزيز التشكيل المشتت للتنظيم القبلي في إدارة مركزية، وفرض على القبائل المتحالفة سلطته المتباينة بين الشدة واللين، المقرونة بالعمل السياسي. يمتلك ابن سعود موارد واسعة في بساتين النخيل بالرياض وفي واحات المناطق الشمالية والشرقية، في القصيم والأحساء، وجمع ثروة وعدداً أكبر من السكان المتوطنين من منافسه ابن رشيد، وبالتالي فإن هيمنتهم تركز على أسس أكثر صلابة؛ لكن يبقى المصدر النهائي

للسلطة، هنا كما في مجمل التاريخ العربي هو شخصية القائد، فمن خلاله يتماسك الكيان السياسي، سواء كان خليفة عباسياً أم أميراً في نجد، وباختفائه ينهار كل شيء.

إذا كانت السمة البارزة لاجتماع الكويت هي اعتراف الزعماء العرب المجتمعين بحسن نوايا بريطانيا العظمى تجاههم، فقد كان الحضور الاستقلالي الثابت لعرب الصحراء، من القضايا الحديثة جداً، لدرجة أنهم بالكاد أصبحوا معتادين على وجودها، ما أعطى زيارة ابن سعود للبصرة طابعها المميز. في غضون ساعات قليلة عُرضت أمامه أحدث الآليات الحربية، وشاهد إطلاق عبوات شديدة الانفجار على خندق تجريبي، ورمي قذائف مضادة للطائرات في عمق السماء الصافية، وكذلك الركوب بسكك الحديد التي لم يتجاوز عمرها الستة أشهر، ثم السفر بالسيارة عبر الصحراء إلى موقع معركة الشعبية، حيث تمّ تفقد المشاة البريطانيين وسلاح الفرسان الهندي، كما شاهد دخول بطارية من المدفعية في معركة استعراضية. وفي أحد المستشفيات الثابتة في قصر صديقنا العزيز، شيخ المحمرة، تمّ عرض عظام يده تحت أشعة رونتجن، وتمشّى على طول الرصيف الكبير على شط العرب، وعبر المخازن المكدسة بالبضائع التي تحوي ملابس الجيش والمواد الغذائية، وشاهد أيضاً طائرة تتسلق أعناق السماء الزرقاء. لقد نظر إلى كل هذه الأشياء بذهول، كان الاهتمام الذي أظهره في الآليات الحربية، اهتمام رجل يسعى إلى التعلم، وليس من يقف حائراً، ثم بيّن لمضيفيه من الضباط بطريقة لاشعورية، تلك الشهرة التي اكتسبها في الجزيرة العربية من حيث الحس السليم وقوة التحمل.

وبينما كان الزعيمان يغادران، وكذلك شيخ المحمرة، قال «يسعدنا أن نرى عظمة قوتكم» ربما وجد من سمعوه أذهانهم تشير إلى القوة الأكبر والأكثر ثباتاً من قوة الأمير، وتطلعوا إلى اليوم الذي سننشر فيه علم السلام بدلاً من علم التدمير.





صور من زيارة أمير نجد وأمير الكويت وأمير المحمرة إلى البصرة في سنة ١٩١٦



صور من زيارة أمير نجد وأمير الكويت وأمير المحمرة إلى البصرة في سنة ١٩١٦

السيادة البريطانية

في أراضي بلاد الرافدين

إن لتاريخ حملة بلاد ما بين النهرين جانبين، فإلى جانب قصة الغزو العسكري، وحكايا الانتصارات التي لا تقل شهرة، هناك جانب السلام الذي تجلبه بريطانيا العظمى بعد أن تغزو جيوشها أراضي كانت تفتقد السلام لوقت طويل. فقبل أن يزول دخان المعارك، ودوي أصوات المدافع، تبدأ الأعمال بإعادة الإعمار، على الرغم من القيود التي لا مناص من فرضها على السكان المدنيين، بسبب حالة الحرب. لكن لو تمّ غداً سحب الضباط المدنيين والإداريين المدربين من أفراد الحملة العسكرية، سوف لن يتركوا وراءهم سوى ذكرى الأزدهار وأسس النظام والأمن والرفاهية.

إن القيام بمهام حكومة مدنية في بلد محتل هي مهمة تنطوي على صعوبات نوعية تجابه الحاكم، فهناك تأثيرات العدو القريبة على السكان، فضلاً عن انقسام الولاء نحو الحكم الجديد، وعدم اليقين من حقيقة الموقف؛ والعامل الأخير هو أمر حاسم للسكان العرب في الدولة العثمانية، فهم يدركون جيداً أن أيّ طاعة قد يخضعون لها للقوى المحتلة، ستكون بمثابة ذريعة للانتقام بلا شفقة إذا تغيّرت ظروف الحرب لصالح أسيادهم السابقين. لقد قدم سقوط الكوت بالفعل مثلاً بغيضاً على ذلك الانتقام العثماني، فالمسؤولون الأتراك هم من جنس مختلف عن أولئك العرب الذين يحكمونهم، ويرجع سبب ذلك جزئياً إلى أن سكان هذه الأراضي المحتلة انتقلوا من حاكم أجنبي إلى آخر حيث تمّ إجراء التغيير بسهولة نسبية؛ ومن ناحية أخرى، فإن غالبية السكان العرب يشاركونهم في عقيدة واحدة. ومع أنهم غير متعاطفين بلا شك تجاه الحضارة العربية، إلا أنهم يخضعون بهذا الفهم الآسيوي للأسوي، والذي على الرغم من أوجه القصور في الإدارة الشرقية، يعطيها ميزة على الأساليب الأوروبية الأكثر ملاءمة.

في الولايات المهملة من تركيا، لا يرث الحاكم الجديد سوى صيغة حكم إداري محدود وعليه أن يحول ذلك إلى واقع فعال. فولاية البصرة، من حدود مدينة الكوت حتى الخليج العربي، عكست في العهد التركي صورة واضحة في الخروج على القانون، كانت هناك سيطرة متقطعة على ضفاف نهر دجلة، إلى حدّ كبير من خلال اللعب على عداوات التوريث العائلي في المجموعات القبلية الكبرى، والتنافس الشخصي الذي كان قائماً بين أفراد الأسر الحاكمة. كان الاعتراف لهم بالهيمنة المحلية واستغلالها لمصلحتهم هو غاية ما يطمح إليه الأتراك، وأفضل ما يمكن قوله عن سلطتهم الخاوية المهزوزة هو أنها اسمية. في وادي الفرات يمكن القول بصراحة إنه لا تأثير لهم، ومع ذلك إذا كان الأمر يتعلق مبدئياً بربط الإمبراطورية بتلك الجهات المعزولة، فهي لا تتعدى ربما الألفين أو نحو ذلك من الأميال المربعة على جانبي النهر من القرنة إلى الناصرية. الأهوار ومزارع الشلب والصحراء وبساتين النخيل التي تحتلها حوالي خمسين قبيلة معروفة، كانت جميعها في وقت من الأوقات جزءاً ضمن رابطة المنتفق تحت حكم العائلة الحجازية القوية من آل السعدون،

رغم أن معظمهم لا يزالون بالاسم منضمين لهذا التحالف المشهور. وحتى وقت قريب، كان السعدون يكتفون بتقديم الجزية والخدمة العسكرية وشرف الزعامة، وهي مزايا يعترف بها أصحاب القبائل على الأرض باستعدادات متفاوتة؛ لكن علاقات الملاك بالشيوخ لا تقع ضمن الأركان الأربعة للمفهوم العثماني لحقوق الملكية. في عام ١٨٧١ قام مدحت باشا، والي بغداد، بالتسوية على الطريقة التركية، حيث تم تقسيم ملكية الأراضي القبلية بين الإدارة السنية وآل السعدون وتم تسجيلها في سندات الملكية التركية؛ وبهذا وجدت القبائل نفسها أنها أصبحت فقط مستأجرة، بذلك قايض آل السعدون امتيازهم القبلي القديم مقابل الرضا المشكوك فيه عن الدعم الرسمي لدورهم الجديد كملاك. لم تقبل القبائل أبداً بهذا التغيير، وأدى سخط المزارعين الحاد إلى إبقاء منطقة المنتفق في حالة تمرد مستمر، وانتهت محاولات قمع المتمردين في إيذاء الجيش العثماني بشكل كبير. ونتيجة لضعف الحكومة المركزية -بعد الحروب الإيطالية والبلقانية- لم تستطع لا الحكومة ولا حتى نجح السعدون في تحصيل أكثر من جزء بسيط من إيجاراتهم.

وهنا أيضاً أتبع الأتراك سياستهم الكلاسيكية في محاولة تحسين وضعهم من خلال تدمير عناصر النظم الأصلية، في بلد مقسم بين العديد من الوحدات الصغيرة، كل واحدة منها مليئة بالعداءات القديمة، التي توفر أسس المشاكل، فالروابط الاتحادية التي كانت موجودة على الدوام تبدأ بالضعف، وأي شيخ يظهر القدرة على ممارسة السيطرة، تتم مواجهته بالعداء والتأمر الحكومي، ويتم تحريض مجموعة ضد أخرى، وقبيلة ضد ثانية، ومنطقة ضد أخرى، وتنتج بعد ذلك الفوضى، فلا يستطيع أي من المسؤولين الأتراك، ولا التجار ولا المسافرين تأمين المرور بشكل واضح. فيقوم كل زعيم صغير ببناء برج طيني لنفسه، يتحدى فيه وبنجاح في مثل هذا الجزء من العالم، كل من جاء إلى داخل ملكه، أو يسرح في مشحوفه الخفيف لينهب من خلال قنوات الأهوار والترع القريبة، الغرباء والمسافرين العزل.

في ظل هذه الفوضى السائدة، التي عززتها ربما الحرب العالمية، قامت الإدارة البريطانية باحتلال الناصرية وسوق الشيوخ في تموز (يوليو) ١٩١٥. في الشمال والجنوب، كان الأتراك وأتباعهم مستعدين لإغراء القبائل بالرشاوى والوعود؛ وبسبب التدابير والاحتياجات العسكرية فرضت بعض الأمور التي تثير غضب السكان، مثل منع مرور البضائع إلى العدو. وبصرف النظر عن الظروف المرتبطة بالحرب، فإن تقاليد النظام الاجتماعي عنصر حساس يجب مراعاته. ومع ذلك، فإن التقارير الدورية للضباط السياسيين المحليين تشهد على حكمة الإجراءات المتخذة والنتائج التي تحققت. تلقى الزعماء المتنفذون التقدير المناسب وأصبحوا مسؤولين عن مجتمعاتهم، وتم تشجيع التحكيم على أسس العادات القبلية، وأخذت إجراءات لحل الخلافات الصغيرة حول حدود الأراضي، وبمساعدة الشيوخ والسادة تمت تسوية الخلافات في قضايا الفصل والثأر سلمياً. كان التعامل يتم بأمانة مع الأفراد الذين يعكرون السلام، حين تشوب المخاوف من إثارة المشاكل التي قد تؤثر على العمليات العسكرية في مكان آخر، ولكن في بعض الأوقات، كان لا بد من هدم الحصون

وتسليم المخالفين إلى العدالة، رغم أنه، ليس هناك من قوة أخرى تسند السلطة المدنية، غير مجموعة من حرس العشائر التي تشكّلت في الاثني عشر شهراً الماضية. فضلاً عن ذلك، تمّ بناء المدارس والمستوصفات التي استُقبلت بترحاب كبير، كما تمّ البدء في تحصيل الضرائب.

على نهر دجلة، لم تكن هناك مشاكل أساسية في الأمور الزراعية، فجميع الأراضي التي تمّ ضمها إلى الإدارة السنيّة، لا تزال مؤجرة على شكل مقاطعات كبيرة لشيوخ القبائل الأصليين، على الرغم من تضخم الإيجارات بشكل غير معتاد، بسبب عادة طرح عقد الإيجار للمزاد العلني كل خمس سنوات، لذلك كانت المهمة الأولى هي تحديد المبلغ المعقول الذي يمكن المطالبة به من المزارع، وتمّ تحويل جميع المتأخرات، وفي بعض الحالات تمّ تخفيض الإيجار بمقدار النصف، وربما مع خسارة بسيطة للخزانة لأن الالتزام الاسمي لم يتمّ الوفاء به على الإطلاق. كما تمّت تسوية الخلافات القديمة الناشئة عن عدم ترسيم حدود الأراضي، بشكل مؤقت، بناءً على أفضل الحلول المتاحة؛ وتمّ كذلك تحقيق الاستفادة الكاملة من مسؤولية الشيخ في الحفاظ على السلم العام، وهو مبدأ مفهوم جيداً بين القبائل القوية في المناطق النهرية.

يتضح أن الضباط السياسيين في جميع أنحاء الأراضي المحتلة كانوا ماهرين في ممارسة خلطة مناسبة من القوة والصبر والإقناع، من خلال الصداقة الشخصية والثقة القائمة بينهم والعديد من الشيوخ الذين يتعاملون معهم؛ عبّر عن هذا الإحساس بكلمات بارعة أحد شيوخ الأهوار قرب الفرات، والذي كان شوكة في عيون المسؤولين العثمانيين، عندما علق على أنشطة الضابط السياسي المساعد الذي امتاز بمعرفة عميقة عن كافة جوانب المنطقة التي ينتمي إليها، قائلاً: «هناك بين العرب عدد كبير من السراق والأوغاد، لكنه يعرف كيف يميز الخير من الشرير منهم». وهناك إعجاب مشابه عن إداري مدني في منطقته، صاغه أحد أفضل مشايخ نهر دجلة، لم يكن أقل من ذلك انطباعاً صادقاً، قال الشيخ: «لا أذهب إلى داره أبداً، لكنه يرحب بي دوماً». وقد شجعت تلك المعاملة الذي تلقاها في كل مكان، حين ذهب بشقيقه المريض، الرجل الذي قضى حياته في صراع مرير مع الأتراك، ليموت -كما حدث- في أحضان الحكومة البريطانية في البصرة.

كان أحد أهم عناصر الإقناع، هي الأعمال البناءة التي تمّ تنفيذها على مجرى كلا النهرين، وإن كانت بشكل رئيسي للأغراض العسكرية. لقد أثبت نصب السكك الحديدية وبناء الطرق والسدود أن كلمة «الحكومة» لها أهمية، وقد تمّ بالفعل مقارنة تلك الطاقة البناءة للبريطانيين مع التخريب الذي ميز الحكم العثماني. يقول تقرير حديث من منطقة على نهر الفرات: «إن التقدم التدريجي للسكك الحديدية له تأثير مهديّ بشكل عجيب، ربما أكثر من أيّ شيء آخر، حيث أدى ظهور الخط الحديدي إلى تهدئة القبائل. هذا التغيير من الموقف العدائي العلني في آذار (مارس) الماضي لافت للنظر. كان لإصدار التصاريح للعرب المسافرين بالسكك الحديدية إلى البصرة نتائج جيدة، وقد ذهب العديد من سكان البلدات

ورجال القبائل في زيارة تفقدية إلى السكة الحديدية، وعادوا جميعاً معجبين. أما العوائق التجارية التي خلقتها الحرب، ونقص النقل النهري، ونقص السلع المستوردة، والحصار، وارتفاع أسعار المعيشة بسبب المطالب الاستثنائية لجيش كبير، فقد تمّ تعويضها من خلال العمالة الوفيرة ذات الأجر الجيد، والتي كان يمكن الحصول عليها في كل المدن والمناطق الريفية؛ لقد لعب الشيوخ بشكل عام، دوراً جيداً في توفير العمالة المطلوبة، خصوصاً عندما يكون العمل مفيداً للمناطق الزراعية، سواء كان فتح طريق أم بناء سدّ، فقد ثبت أنه إجراء سياسي قيم؛ في إحدى الحالات، قام رجال القبائل أنفسهم بالإصلاحات اللازمة للسدّ.

تؤول حماية الأنهار والسكك الحديدية على طول نهر دجلة إلى حرس العشائر الخاضعين للإدارة المدنية، وباستثناء عدد قليل من النقاط المتناثرة، فإنّ الحماية العسكرية على طول خطوط الاتصال الرئيسية من أقصى شمال مدينة العمارة حتى حدود سكة حديد الناصرية عبر الصحراء -وأيضاً هنا- لا تخلو من مسؤولية القبائل، لأن حلفاءنا من البدو على القوس الحدودي مسؤولون عن الحفاظ على الأمن، مقابل الدعم الذي يتلقونه. وعلى نهر الفرات، تمّ تشكيل مجموعة صغيرة من الخيالة لأداء مهام الشرطة المدنية. لقد كان هناك نموذج بدائي للحراسة النهرية في ظلّ النظام العثماني، وكانت الخيالة من القبائل المترابطة بشكل وثيق جداً مع قوات الدرك التركية، وبالتالي فإنّ الخدمة في مثل هذه الهيئات لها طابع مألوف ويتمّ قبولها بسهولة؛ كما أنه مخرج لنفوسهم المضطربة، وخصوصاً للحراس من الخيالة، فهو يوفر فرصة عمل مشرفة للقادة الصغار والأفراد الفقراء من الأسر الحاكمة، مثل السعدون، الذين كان ولاؤهم للإدارة البريطانية أكبر نسبياً، حسب مشاركتهم الشخصية في السلطة المحلية. وحتى إذا كان عدد هؤلاء الحراس غير كبير، فقد يُنظر إليهم على أنهم إحدى الدلائل العديدة على أن أسس الإدارة يتمّ وضعها بشكل جيد وحقيقي.

عند المطالبة بالمسؤولية، من غير الممكن تجنّب القبول المماثل في المسؤولية، ومهما كانت مشاكل الحرب، فإنّ مصير أولئك الذين قدموا لنا الطاعة والخدمة في الأراضي المحتلة، هو أمانة مفروضة على شرفنا الوطني، حتى لو ادّعوا بأنهم مكرهون على تقديم الدعم للأتراك أو الألمان وهم عرضة للشك. وفي كثير من الحالات، تمّ تقديم الطاعة دون تردد وأداء الخدمة بإخلاص شديد بحيث لا تُعطي وزناً للأعذار ما يجعل الأمر دون شك مثيراً للسخرية. يقدم الاحتلال العسكري أحد المسارين، إما سياسة القبض الحديدية أو السياسة المسؤولة، الأول هو إنكار فارغ للجهد البشري، والآخر يبني نظاماً حياً مثل كل الكائنات الحية يجب أن تحيا أو تموت؛ لقد اخترنا البديل الأخير ونحن مكلفون بإحيائه، دع البلجيك والبولنديين والصرب يشهدون على اختيار الآخرين، حتى وإن كانت هناك شكوك في ادعائهم بأن تقديم الدعم للأتراك أو الألمان كان بالإكراه.

الشيعة وموقعهم في العراق

وقع الإعلان المتزامن عن الثورة في الحجاز والاضطرابات في كل من النجف وكربلاء على مسامع العالم الإسلامي باهتمام لا مثيل له؛ كانت الحكومة العثمانية -بناء على طلب ألمانيا- قد بذلت قصارى جهدها منذ خريف عام ١٩١٤، لإعطاء طابع الجهاد المقدس بدفع تركيا والبلاد العربية في الحرب ضد الكفار، حيث نشط التبشير بإعلان الجهاد في المساجد في سوريا والعراق؛ وكانت مجمل جهود الحملة لإعلان الجهاد يقودها المبعوثون بشكل مستمر بين العشائر الشيعية في العراق، وحثهم على القتال لنصرة الدين، وتمّ في الواقع، تحقيق بعض النجاح في العراق. وربما لم يكن من المستغرب أن تفشل تلك الحملة في سوريا، عندما نعلم أن أحد دعاة الجهاد في مسجد الأمويين في دمشق كان يهودياً ألمانياً، ومعروفاً جداً في البلاد العربية بحيث لا يمكن قبوله كعالم في العقيدة الإسلامية حتى من قبل الجهلة.

لكن فشل العثمانيين في إثارة المسلمين للجهاد كان له مظاهر إيجابية، وليس فقط بعض المظاهر السلبية. فبعد ما يزيد قليلاً عن عام ونصف من بدء الحرب، تمّ إعلان استقلال العرب من الحكم التركي في مكة، مركز الديانة الإسلامية، وأرسل عدد من الفرس في كربلاء رسالة التماس لإخوانهم في الدين في بلاد فارس للاحتجاج على الاعتداءات التي ارتكبتها الجيش العثماني في الحرمين الشريفين.

في العراق -والمقصود به المناطق الواقعة من رأس الخليج العربي وحتى بغداد- يشكّل الشيعة الجزء الأكبر من السكان، ونسبة السنّة منهم صغيرة نسبياً، ويعود أصل الانشقاق الكبير في الإسلام إلى الأيام الأولى للدين، وهو متجذر بشكل عميق في الانقسامات القبلية والتنافس الذي أثبت على الدوام أنه العائق الأكثر خطورة أمام الهيمنة السياسية للعرب. لم يكن الرسول قد وضع خلال حياته، أي أوامر محددة فيما يتعلق باختيار خليفته، لقد مات أبناؤه في طفولتهم، وكانت ابنته المفضلة فاطمة متزوجة بابن عمه وابنه بالتبني علي بن أبي طالب، الذي أعلن عنه علانية أنه مقرب له أكثر من أي شخص آخر، ولكن بسبب الطبيعة الديمقراطية لتعاليم النبي، لم يدعُ بنقل منصبه عن طريق النسب المباشر. وفي حياته الخاصة، خلال فترة مرض قصيرة، لم يكن صهره علي، وإنما والد زوجته، أبو بكر، الذي اختاره الرسول لإمامة الصلاة. شكّل غياب الشخصية المهيمنة لبني محمد لحظة حاسمة في تاريخ الدين الجديد، وأصر بيت آل هاشم الذي ينتمي إليه علي على أن منصب أمير المؤمنين وولي الله قد انتقل بالتعيين وكذلك بالخلافة إلى علي، ولكن اختيار معظم قريش -قبيلة الرسول- وبعض الصحابة من أهل المدينة كانت لأبي بكر، فرض علي لهذا الاختيار. وعند وفاة أبي بكر تمّ تجاوز علي مرة أخرى لصالح عمر بن الخطاب، والد الزوجة الأخرى للنبي، وعندما اغتيل عمر في العام ٦٤٤، عُيّن مجلس مكون

من ستة أعضاء من المرشحين، وفاز الخليفة عثمان بن عفان بالترشيح، وكان عليّ هو أحد المرشحين الستة، ولم يستلم الخلافة إلا بعد مقتل عثمان في العام ٦٥٦.

واجه عليّ في خلافته ثورتين، في معركة الجمل بالقرب من البصرة، وفي معركة صفين بالقرب من الرقة على نهر الفرات، لقد أرغم لدعم سلطته، أولاً ضد طلحة والزبير، اللذين سقطا ودفنا في البصرة القديمة (اسمها الحديث الزبير، نسبة لقائد الحركة) والثانية ضد معاوية من بني أمية، والي الشام. لم يكن القتال في صفين حاسماً، فعلى الرغم من بقاء عليّ خليفة على العراق، بقي معاوية خليفة على ولاية الشام، دون اعتراف من أنصار عليّ. وبعد مقتل عليّ في الكوفة بالقرب من النجف، تمّ اختيار ابنه الحسن من قبل الفاطميين أتباع أبناء فاطمة، ابنة النبي وزوجة عليّ، لكن الحسن تنازل عن المنصب، وبقي بنو أمية في الخلافة بلا منازع حتى وفاة معاوية في العام ٦٨٠. وكان قد جعل ابنه يزيد خليفة بعده، لكن يزيد واجه معارضة غير متوقعة، فشحب العراق -المعادي دوماً لبني أمية في سورية- دعا الحسين، الابن الثاني لعلي، للمطالبة بالخلافة، وكان الحسين واثقاً في وعود العراقيين المتقلّبين، فانطلق من مكة مع مجموعة تتكون أساساً من النساء والأطفال. لم تكن هناك استعدادات كافية للثورة، وعندما اقترب الحسين من نهر الفرات وعسكر في البقعة التي تقف عليها مدينة كربلاء اليوم، وجد أن أغلب الثوار أصبحوا في قبضة يزيد، وخلال يوم أو يومين، قامت قوة قوامها ٤٠٠٠ جندي بعزل معسكره عن النهر.

تُتلى قصة الأحداث المأساوية التي وقعت في الأيام العشرة الأولى من شهر محرم في ذكرى سنوية في كل المناطق الشيعية، وتثير شعوراً بالغضب والحزن يصعب تهدئته رغم مرور أكثر من ١٢٠٠ عام على الحدث. أحد العرب السنة من سوريا، كان قد هرب مؤخراً من الحكم الاستبدادي التركي في دمشق وقدام إلى البصرة، وجد نفسه أثناء رحلته قد حلّ ضيفاً على قبيلة شيعية بالقرب من كربلاء، وحين جلس في خيمة الضيافة عند حلول الليل، روى له الشيخ حكاية الحسين بن عليّ، وعن فرقته الوفية الشجاعة، التي لم تثقلها سهام العدو وعذابات العطش، سقطوا من حوله الواحد تلو الآخر، ومات ابنه في ذراعيه، وثقبت شفته بسهم وهو يحاول شرب جرعة من الماء، ومع استمرار سرد التعزية، كانت الدموع تنهمر على خدي الشيخ، واهتز رجال القبيلة الجالسون حول الموقد جيئةً وذهاباً ليكون بآلم «كما لو حدث المشهد ذلك اليوم».. قال الشاهد السوري مندهشاً.

نجا من تلك المذبحة الشاملة، صبي مريض، ابن الحسين من أم فارسية، ويعود إليه ولأحفاده من بعده، الأئمة الحقيقيون للشيعية، ورثة الخلافة الرسولية والزعماء الروحيون للإسلام. من هؤلاء يعرفون بالأئمة الاثني عشر منذ محمد، وهم علي وابناه الحسن والحسين، وتسعة أحفاد مباشرين للحسين، آخرهم محمد المهدي، الذي اختفى في العام ٨٧٨ في كهف بسامراء -شمال بغداد- قبل بلوغه سن الثانية عشرة، ويُعتقد أنه سيعود للظهور في آخر الزمان ويؤسس الخلافة العالمية. إن الحج إلى مكة والمدينة هو واجب على الشيعة كما هو الحال بالنسبة لجميع المسلمين، ولا تقل عن تلك أهمية، زيارة ضريح

علي في النجف والحسين في كربلاء، ويريد كل المتدينين الشيعة أن يُدفنوا بالقرب من هذه الأضرحة، ولا سيما في النجف.

كبار فقهاء الشيعة، هم المفسرون والمسؤولون عن الأمور الدينية الفقهية التي تغطي جميع قضايا الحياة المدنية، ويُسمّون المجتهدين، ومجتهدو النجف وكربلاء يتمتعون بامتياز وتأثير كبير، وظائفهم ليست دينية فقط، إنما يمارسون تأثيراً سياسياً قوياً للغاية، وهم قوة مؤثرة، كان الأتراك ينظرون إليها بنوع من الكراهية وعدم الثقة. قد يكون من المهم الإشارة إلى أن اثنين من الموقعين على المذكرة التي تم إرسالها مؤخراً إلى بلاد فارس ابن وابن أخ أحد أشهر مجتهدي كربلاء. ولطالما أقامت الحكومة في الهند علاقات مع المجتهدين في كلتا المدينتين، حيث كان يتم من خلالهم توزيع الأموال على فقراء في الأماكن المقدسة، والمعروفة بصندوق الأودة(6).

مركز المذهب الشيعي هو بلاد فارس، وليس من المستبعد أن يكون للفكر الميثافيزيقي الآري -الذي نشأ في بلاد فارس- دور ما في تشكيل تلك العقائد، لكن مكان ولادة التشيع هو العراق، وهو إقليم مشوب بشدة بالتأثير الفارسي. لقد كانت قوة الإقناع للمناخ المحلي لدى سكان البلاد، قوية جداً، لدرجة أن المهاجرين من القبائل الوافدة من قلب الجزيرة العربية السنية، قد اعتنقوا مبادئ البلاد وأصبحوا كلهم تقريباً شيعة بلا استثناء. والعملية لا تزال مستمرة. فالشريفات، وهم قبيلة بدوية خالصة من تحالف المنتفق، ربما كانوا من المتحوّلين حديثاً. ولا تزال جماعة السحيم، المكونة لبني حميد في المنتفق، من السنة جزئياً، وإن كان ذلك إلى حدّ ضئيل جداً؛ وهناك أمثلة على التحول في عائلة السعدون السنية، الأشراف، وهم من أقرباء شريف مكة، وبالتالي من مركز المذهب السني.

يتمتع العنصر السني في العراق -رغم صغر حجمه- بأهمية اجتماعية وسياسية لا تتناسب مع حقيقة حجمه. ويتكون بشكل رئيسي من كبار ملاك الأراضي، مثل السعدون وعائلة النقيب في بغداد والبصرة، ومن التجار الأثرياء الذين يسكنون المدن ويملكون المقاطعات على طول الأنهار. وباستثناء السعدون، فإنّ معظم السنة في العراق هم من سكان المدن؛ فمنذ أن كانت البلاد تحت سلطة الحكومة العثمانية السنية، لم يكن للشيعة أيّ وضع سياسي، ولم يكن للفقهاء الديني الشيعي أيّ اعتراف قانوني، ولم يتم تضمين القوانين الشرعية الشيعية، التي تختلف عن نصوص الشرع السني، في القانون العثماني. وربما -بسبب طبيعة الهيمنة السنية الواضحة- لم يكن هناك شيء من الحسد أو المرارة بين فرعي الإسلام في العراق، لذلك مهما تكن التغييرات التي قد يجلبها المستقبل، يجب أن يكون الاهتمام الأول لحكام البلاد هو الحفاظ على هذا الانسجام الناجح بين المذهبين.

الاختلاف الجذري بين تعاليم الشيعة والسنة يتعلق بمسألة الخلافة، فبالنسبة للشيعة لا يوجد خليفة حيّ معترف به، وينتظرون مجيء المهدي الذي اختفى من رؤية البشر في القرن التاسع؛ لكن في نظر السنة، تعتمد خلافة السلطان العثماني، على تنازل آخر خليفة

عباسي في مصر عن الخلافة والإمامة لصالح السلطان سليم الأول، رغم صعوبة التوفيق بين لقب الخليفة للسلطان والمذهب العام لأهل السنة، حيث يشترط بأن الخليفة يجب أن ينحدر من قبيلة قريش، وهي عقيدة مستمدة من الحديث الشريف للنبي محمد، مع أنها ليست بالضرورة من مبادئ الدين، أن يتمتع الخليفة بالسلطة الروحية والزمنية على حد سواء، إلا أن هذا الجمع له فائدة عملية كبيرة، فحقيقة أن السلطان العثماني -وحده من بين الحكام المسلمين- كان قادراً على الدفاع عن المتشددين، الذين وقفوا بجانبه بشكل تام. لكن حماية الأماكن المقدسة كانت من أهم المنافع الأخرى، وكان الأتراك يسيطرون بقوة على مكة المكرمة والمدينة المنورة، كما كان واضحاً بشدة من الجهود التي بذلها عبد الحميد للإسراع في بناء سكة حديد الحجاز من دمشق إلى المدينة المنورة؛ ولم يتم إكمال الخط من المدينة المنورة إلى مكة فقط بسبب التردد الشديد من قبل الشريف.

بالنسبة إلى الشيعة، لا يمكن أن يكون انتقال السلطة السياسية في الحجاز من السلطان العثماني إلى الشريف قضية عابرة، لأنها حتماً ستؤثر على ظروف الحج، لقد كان لإعلان الشريف مغزى كبير. شعر جميع العرب، سواء في العراق أو في أي مكان آخر، بأن الهدف الثابت للسلطة الحاكمة في تركيا يتمثل بشكل واضح في كسر وسحق شوكة الشعوب العربية في كل جزء من الإمبراطورية، فقامت باضطهاد العائلات العربية الكبيرة في العراق وسوريا، وإقالة الموظفين العرب، كما كانت هناك نية معلنة لوضع حد للاستخدام الرسمي للغة العربية. كل هذه كانت مؤشرات على سياسة خطيرة بالنسبة للعرب الشيعة والسنة على حد سواء، والإحساس بهذا الخطر هو الذي ألهم الشريف للإعلان عن استقلال العرب، في ظل خطر الإهمال السياسي الذي تعرض له هو وأبناء الوطن العربي، فقد أصبح الناطق بلسان تطلعاتهم العميقة وأمالهم العريضة لفترة طويلة نحو الحرية، والتي لا تنبع من الشيعة ولا من السنة، ولا حتى من الإسلام حصرياً، ولكن من أكثر المفكرين والمتنورين بين الشعوب العربية بغض النظر عن مناطقهم أو عقائدهم الدينية.

المحمة

من الأراضي السهلية المنبسطة في الفاو وحتى خور خين، على بعد أحد عشر ميلاً فوق مصب نهر الكارون، يشكّل شط العرب الحدّ الفاصل بين ما كان سابقاً تركيا وبلاد فارس. ولاية عربستان، منطقة معزولة بالجبال والنهر والأهوار بين تركيا وبلاد فارس، لقد حافظت دائماً على موقف شبه مستقل، خال من أيّ تدخّل، باستثناء فترات متقطعة للسيطرة من قبل القوّتين؛ ومع ذلك فقد كانت لفترة طويلة موضع نزاع بين طهران وإسطنبول، فيما إذا كان ينبغي على جنوب عربستان أن تشكّل جزءاً اسمياً أم لا، من سيطرة الشاه، أو إلى أيّ مدى ينبغي أن تشكّل جزءاً من بلاد فارس. كان النفوذ الفارسي سائداً عادةً، لكن السكان هم من العرب بالكامل تقريباً، من مناطق العراق المجاورة. عند نهاية القرن السادس عشر أو بداية القرن السابع عشر، تعزز العنصر العربي بشكل أكبر في عربستان، بهجرة قبيلة كعب

الكبيرة، التي كانت في الأصل خاضعة للحكم العثماني، وهم مثل جميع سكان بلاد ما بين النهرين قدموا من شبه الجزيرة العربية، يقال إنهم ينتمون إلى شواطئ الخليج الغربية، ومن ثم استقرت القبيلة على نهر الغراف، وهي ربما كانت القناة الرئيسية لنهر دجلة في ذلك الوقت، ثم احتلت الأراضي المحيطة بمدينة واسط التي أصبحت الآن أراضي برية خالية، وسلسلة من التلال الخربة. وعندما تم طردهم من قبل مشيخة المنتفق القوية، انتقلوا إلى دلتا نهر الكارون، حيث عاملوا السكان المحليين بالمعاملة نفسها التي تلقوها على يد المنتفق، وامتدوا شرقاً من الكارون إلى جراحی. لم يكن لقبيلة كعب أي مفاضلة بين الهيمنة التركية أو الفارسية، فكلاهما كان مقبلاً لها، لكن عندما انتشروا شرقاً أتوا إلى مقاطعات كانت بلا شك فارسية، ووجدوا أنفسهم مضطرين لتقديم الضرائب للشاه. في النصف الثاني من القرن الثامن عشر منحوا أراضي الهندية، إلى الشرق من جراحی، وكان هذا أبعد امتداد لهم في هذا الاتجاه. كانوا خاضعين اسمياً لبلاد فارس، لكنهم مستقلون تقريباً؛ كما كانوا كذلك ضمن المناطق المضطربة في جنوب العراق، يظهرون كحلفاء لبلاد فارس في وقت ما، وحلفاء لتركيا في وقت آخر؛ في شط العرب مارسوا مهنة القرصنة، ما أوقعهم في صدام مع شركة الهند الشرقية وبالتالي عرضوا أنفسهم لأعمال انتقامية عقيمة إلى حد ما؛ لكن على الرغم من تقلبات حظوظهم، فقد ظلوا عملياً متحكّمين داخل أراضيهم.



الشيخ خزعل بن جابر أمير المحمرة

في بداية القرن التاسع عشر، برز منافس محلي على المسرح، عندما أسست قبيلة المحيسن -وهي قبيلة خاضعة لكعب- مدينة المحمرة بالقرب من مصب نهر الكارون في شط العرب، وكانت تحت عهدة شيخ مقتدر، عمّر طويلاً بشكل استثنائي، وكان عازماً على التخلص من سلطة كعب. حكم الشيخ جابر عشيرته من العام ١٨١٩ إلى العام ١٨٨١، وكان تأييد الحكومة الفارسية له أمراً مشكوكاً فيه، لذلك حصل على أملاك كبيرة في الأراضي التركية، من أجل أن يكون لديه مكان للجوء ومصدر للرزق في حالة الحاجة، كما قام بمساعدة الحكومة البريطانية في جهودها لقمع القرصنة في النهر، ما أيقظ شكوك الحكومة الفارسية، التي كانت تنظر بعين الشك إلى العلاقات بين بريطانيا العظمى والمحمرة، كما كانت ميالة إلى الاستماع إلى الإشاعات التي تفيد بأن الشيخ كان ينوي التخلي عن ولاءه للشاه وربط إمارته مع بريطانيا؛ في حين كان ابنه، مزعل، الذي جاء بعده، أقل ميلاً تجاهها، ويرجع ذلك إلى حد ما بسبب التنافس معنا على التجارة في نهر الكارون؛ لكن شقيق مزعل الأصغر، خزعل، كان مؤيداً لبريطانيا بوضوح، فحتى قبل وصوله إلى السلطة، أعطانا تأكيدات بأنه سيبذل قصارى جهده لتعزيز المصالح التجارية البريطانية. كان الشيخ مزعل حاكماً مستبداً وجشعاً، وبعد اغتياله في العام ١٨٩٧ -وإن لم يكن بسبب السخط العام فقط- رحبت القبائل بارتياح، وأصبح شقيقه خزعل في الانتخابات القبلية شيخ المحيسن، وأصبح بتعيين مباشر من قبل الشاه، الحاكم الفارسي لجنوب عربستان. وبذلك تفككت مشيخة كعب (ومُحيت أخيراً في العام ١٨٩٨) وورثت قبيلة المحيسن ممتلكات كعب من الكارون إلى الهندية، لكن الحق الشخصي للشيخ خزعل في هذه الأراضي لم يتم تأكيده بشكل قاطع حتى العام ١٩٠٣، عندما منح فرمان سند ملكية مضموناً لمنطقة جنوب عربستان، باستثناء منطقة جراحي التي كانت مملوكة لملاك الأراضي الفرس. كانت تلك الأراضي محشورة بين الهندية والكارون، وكانت سيطرة الشيخ غير المؤكدة عليها تشكل مصدراً دائماً للمشاكل. لقد امتلك من والده وأخيه مناطق كبيرة في الأراضي التركية، أضاف إليها بنفسه حتى أصبح أكبر مالك للأراضي في منطقة البصرة. وقد تعزز نفوذه هناك من خلال حقيقة أن نسبة كبيرة جداً من الملاك على شط العرب -وهم خاضعون للحكم التركي- كانوا إما من المحيسن أو كعب، وكانوا ينظرون إليه على أنه زعيم القبيلة. كان الموقف شاداً وأدى إلى تعارض ادعاءات السيادة الإقليمية (ادعاءات لم يعتد العرب على أخذها في نظر الاعتبار) مع الأعراف القبلية القديمة؛ فالمحيسن وكعب، على الرغم من أنهما قبيلتان تقيمان في ظل الحكم العثماني، وكان من الممكن إخراج شهادات الجنسية التركية لأبنائهما وخضوعهم للتجنيد في الجيش التركي، لو رغبت السلطات العثمانية حملهم على ذلك. كانوا يرفعون كل نزاعاتهما إلى شيخ المحمرة بدلاً من المحاكم العثمانية، وكانت للشيخ الولاية القضائية العليا، والحق في استدعائهم للخدمة العسكرية. كانوا يمتلكون العديد من أراضي زراعة القمح في منطقة الأحواز ويهاجرون إلى هناك خلال أشهر منتصف الشتاء لزراعة المحاصيل التي تقع على بعد ١٠٠ ميل أو أكثر من مزارع

النخيل في الأراضي التركية. هذه السلطة المنقسمة على قبائل شط العرب هي إحدى المشاكل التي تواجه إدارة جنوب العراق، لكنها مشكلة لا تمثل صعوبة كبيرة طالما أننا نستطيع الاعتماد على التعاون الودي مع الشيخ.

إلى الشمال الغربي، أدى بسط سلطة الشيخ خزعل على قبيلة بني طرف المضطربة إلى وضع أهوار الحويزة والمراعي تحت سيطرته؛ وأعطى التطور التجاري على نهر الكارون مدينة المحمرة أهمية متزايدة باطراد كميناء لوسط بلاد فارس، كما أن شخصية الشيخ خزعل القوية وصدافته الملحوظة مع الحكومة البريطانية، لم تسهم في التقليل من انعدام الثقة به سواء من الجانب التركي أو الفارسي من خلال نفوذه المتزايد. كان موقف الشيخ تجاه بلاد فارس شبيهاً بموقف جاره وصديقه الدائم الشيخ مبارك في الكويت تجاه تركيا، تمتع كلا الشيخين باستقلال ذاتي، كانا يحافظان بشدة عليه، وكلاهما يخشى الغيرة والضغينة من العاهلين، الشاه والسلطان، فالموقع الجغرافي للأول على مصب نهر الكارون، وللآخر على رأس الخليج العربي، منحهما أهمية بالغة في القضايا التجارية ذات الشأن الدولي، والتي تم إعطاؤها زخماً حيوياً جديداً من خلال مشروع خط سكة حديد بغداد المخطط له. فالشيخ مبارك، الذي كان رجل دولة يتمتع بمهارة وبصيرة استثنائية، خطط وعمل ونجح في النهاية بالحصول على دعم بريطانيا العظمى، والشيخ خزعل، رجل ربما أقل قدرة ولكنه يستأنس بإرشاد أو ومساعدة مستشاره الماهر، وكيله ووزيره الحاج محمد علي، رئيس التجار في عربستان، حيث التزم دوماً بالتعهدات التي قدمها لنا قبل توليه المنصب، وتلقى في المقابل مثل هذه المساعدة، التي كانت لا تخل في الحفاظ على سلامة بلاد فارس. حين قدم له وسام الهند (K.C.I.E) في العام ١٩٠٩، وتم إبلاغ الحكومة الفارسية أن لدينا علاقات خاصة معه وأنها سنؤيده في حال أي اعتداء على حقوقه. أدى فتح حقول النفط الفارسية وإنشاء مصافي شركة النفط الإنكلو - فارسية في عبادان، في أراضي شيخ المحمرة، إلى تعزيز علاقتنا التجارية معه؛ وبعد احتلال ولاية البصرة، أصبح جاراً لنا، من الضروري أن نحافظ معه على علاقات الصداقة والثقة التي أقيمت قبل الحرب. إن مصالحه - بصفته مالكا للأراضي وأيضاً كشيخ قبيلة - جعلت له تأثيراً كبيراً في الأراضي العراقية المحتلة، بصفته زعيماً عربياً قوياً ومستقلاً عملياً، كما يحظى باحترام جميع القبائل العراقية، وحقيقة أنه شيعي تمنحه وزناً إضافياً بينهم. في العهود التركية، سعى الشيوخ المتمردون للقبائل الكبيرة على طول نهر دجلة إلى الحصول على حمايته، واليوم سوف يتباهى الشيوخ والسادة على ضفاف نهر دجلة بصدقتهم وعلاقتهم الطيبة معه، والحرص على زيارته من حين لآخر. ومنذ اندلاع الحرب، استخدم سلطته الشخصية بلا كلل لصالحنا وقدم لنا كل المساعدة التي تتفق مع وضعه كحاكم لدولة محايدة؛ وضع تحت تصرفنا قصره الكبير الذي يملكه على شط العرب فوق البصرة، لاستخدامه كمستشفى أساسي. وعندما ساهمت بعض العناصر المنفلتة من أتباعه في ربيع العام ١٩١٥، متأثرة بالوعظ للمحرضين الأتراك بإعلان الجهاد، وانتفضت وساعدت الأتراك على مهاجمة قواتنا في الأحواز وقطع خطوط أنابيب النفط، كان موقفه الراسخ وإيمانه العميق بقدرتنا على التعامل مع الوضع، إلى جانب نجاحنا في معركة الشعبية، قد أسهم كثيراً بمنع المزيد

من التراجع ومن ثم سهل الاستعادة السريعة للنظام بعد عمليات الفرقة الثانية عشرة، في دفع الأتراك إلى الجهة الأخرى لنهر الكرخه. كانت حالة الفوضى في شمال عربستان تضيف صعوبات لإدارته، لكنه لم يدخر أي جهد لإبقاء السيطرة على القبائل في يده، ولهذا الغرض أخضع مصالحه الشخصية للمتطلبات السياسية القائمة. في المقابل، حفظنا له كامل أملاكه في الأراضي المحتلة في البصرة، فضلاً عن تسوية جميع حقوقه الإضافية في المنطقة، والتي كان قانعاً بتركها حتى التسوية النهائية في نهاية الحرب.

قد يكون من الصعب تصور التناقض الكبير الموجود بين الشخصيتين القياديتين في المحمرة، الشيخ خزعل والحاج الرئيس؛ الشيخ خزعل رجل طويل القامة، ذو بنية ضخمة وملامح بارزة بقوة، ولكن بطبيعة خشنة، من أصول سامية واضحة تؤكد على أصله العربي، يرتدي غطاء الرأس القديم لقبيلة كعب، وهي عمامة سوداء مطوية بنهاية متدلّية، ويظهر ثراء معيناً في الملابس، يتوافق مع مظهره القيادي ويعززّه. أما رئيس التجار، فهو من أصل فارسي نقي، صغير الحجم، يقظ في الشكل، ذو وجه دقيق، ازداد حدة مع تقدمه في العمر. يقف الرجلان جنباً إلى جنب، رأس أحدهما بالكاد يصل إلى كتف الآخر، يمثلان العقل والحيوية الجسدية التي جلبت لإمارة المحمرة الأمان، عبر خطر المضيق بين سيلا الفارسية وكيربدس التركية (Z).

أدرك الشيخ خزعل تماماً أن المستقبل سيتطلب من خلفائه أكثر من الشجاعة الشخصية والهيبة الموروثة، إذا أرادوا الاحتفاظ بمكانهم في النظام الجديد الذي بدأ في بلاد ما بين النهرين، لقد وضع أبناءه في مدرسة الإرسالية الأميركية في البصرة، ولا يكمل في إقناعهم أنه دون تعليم، حتى أحفاد الأمراء المتميزين سوف يخسرون في السباق. قد تقاس الثروة المحتملة لبلاده بازدهارها القديم، عندما قام الملوك الساسانيون السابقون للشيخ خزعل باحتجاز الإمبراطور فاليريان، وأقاموا السدود لصد فيضانات أنهار عربستان، وأقاموا القصور الكبيرة الفخمة، والتي أدهشت آثارها شعلة الخيال للجغرافيين العرب في القرن العاشر. دفع الطموح الكامن في منافسة الشهرة الساسانية الشيخ إلى التزيّن بنظائر من مزخرفات الصخور الساسانية المنقوشة على جدران قصره في الفيلية، جنوب المحمرة، حيث وضع صورة الجن، وقد نفذ بشكل غير متقن، وهو يقدم أكاليل النصر للمحاربين الضعفاء الذين يحملون الأسلحة، وكذلك تاج على شكل بصلي، والأوشحة المعلقة لكسرى.

على الرغم من السرعة الفطرية والقدرة على التكيف للعرب، إلا أن المهمة أكثر صعوبة من محاكاة المآثر الساسانية التي تقع على عاتق الشيخ وخلفائه، ومسؤوليتنا تجاه أولئك الذين وضعوا ثقتهم في الحضارة البريطانية تتجاوز الاهتمام بأمنهم السياسي، إلى مناطق تستدعي ممارسة الصبر اللامتناهي والحكمة المشتراة بالتجربة، ليس فقط للنجاح ولكن أيضاً بالفشل.

قبائل دجلة

دجلة هو نهر البلاد العربية، قد يعني للتاجر ممراً للتجارة، وللعسكري وسيلة للمواصلات، وقد يروق لعالم الجغرافيا أن يدون على خريطته أسماء الأماكن القديمة والحديثة، ولكن ليس له تحديد مُرضٍ لعالم الأجناس البشرية ولا دليل يساعد رجال الإدارة المدنية. تنتشر حول نهر دجلة تحالفات قبلية كبيرة، لمهاجرين جاؤوا من صحراء شبه الجزيرة العربية، منها تلك الأسماء التي ترد في الأساطير البطولية لشبه الجزيرة العربية من بني تميم وبني ربيعة الذين يتواجدون بينهم، والوقائع التاريخية تؤكد ادعاءهم هذه الأنساب الرفيعة؛ وليس هناك أي تغيير بنيوي في طبيعة تنظيمهم الاجتماعي يميزهم عن البدو اليوم، لكن مكوثهم الطويل في العراق أنتج تغييرات ظاهرة. لقد أصبحوا مزارعين، أو أنهم يحصلون على الرسوم من مزارعي القبائل الصغيرة، بعضهم قد يمثل شريحة سكانية قديمة سابقة، والبعض الآخر جماعات انفصلت عن وحدات كبيرة أخرى من سكان بلاد ما بين النهرين؛ استسلموا للتأثيرات الدينية المحلية وتحولوا من المعتقدات السنية لسكان الصحراء إلى العقيدة الشيعية التي تتمركز في النجف وكربلاء. كما استفادوا من الناحية البدنية من ظروف معيشية أفضل، فالنوع القوي ذو العظام الخشنة الشائع بينهم يتناقض مع نحافة البدو الجياع؛ ولكن إذا كانوا قد ربحوا الرخاء الدنيوي، فإنهم خسروا العزة البدوية، فأخوانهم في مضارب الصحراء لن يزوجوا بناتهم لرجال من قبائل العراق ولا يتزوجون بنسائهم، فهم معدان، وهو اسم لطائفة مهلهلة تنطبق عموماً على أناس ذوي مستوى اجتماعي دون مستوى المتحدث. بالنسبة إلى البدو، فإن جميع سكان ضفاف النهر هم من المعدان؛ وعلى شفاه المزارعين، يشير الوصف إلى مالكي الجاموس وصيادي السمك في الأهوار؛ اشتقاقياً هي كلمة لا تعدو أكثر من كونهم من سكان عدن، الأرض السهلية، والتي أصبحت على لساننا مرادفة لكلمة الجنة بتشوش الأفكار.

نادراً ما كان الأوروبيون يزورون القنوات المتفرعة من نهر دجلة والأهوار التي ترفدها في أيام الحكم التركي، لدرجة أن القبائل وطريقة حياتهم كانت غير معروفة لنا تقريباً، ولم تكن أسماء أبو محمد وبني لام وبني ربيعة تمثل لنا سوى عدد قليل من سكان الأهوار المعتادين على إثارة المشاكل والتمرد، والقيام على فترات متكررة بإطلاق النار بشكل مؤذٍ على البواخر النهرية، وإيقاف حركة المرور النهرية وتحدي الجهود التركية لوضعهم تحت السيطرة. في العام ١٩١٥ أصبحت إحدى هذه المجموعات السكانية الكبيرة على نهر دجلة السفلي تحت السيطرة البريطانية بالكامل، وبدأنا عندها في تكوين فكرة عن تركيبتها وشخصيتها. أبو محمد، بصفتهم كياناً مستقلاً، ليسوا من التاريخ القديم، وبحسب روايتهم الخاصة فإنهم ينتمون إلى تجمع قبيلة الزبيد، وهم أناس كثيرون ومنتشرون على نطاق واسع، ويقع أحد مراكزهم في شمال العراق؛ لا تتوفر تواريخ موثوقة لانتشارهم من قبل المؤرخين المحليين، ولكن على مدى الأجيال التسعة الماضية كان لبو محمد وجود مستقل على أطراف نهر دجلة بين العمارة وقبر العزيز، ومقرهم هو بلدة قلعة صالح الصغيرة. لقد قطعت روابطهم مع أسلافهم من الزبيد منذ فترة طويلة، وليس لهذه المجموعات اهتمام بمصير المجموعة الأخرى.

في الالتزام الديني، كما هو حال معظم رجال القبائل في الواقع، لا يتقيد أبو محمد بجديّة بالشعائر الإسلاميّة، لكنهم ينظرون باحترام إلى السادة، أحفاد الرسول، الذين يعيشون بينهم، ويلجؤون إليهم للفصل في الخلافات ويمنحونهم العطايا. وعندما أعلن الجهاد بشكل واسع من قبل السادة والعلماء في المدن المقدسة، استجابت القبائل وخرجت ضدنا في بداية الحرب، ولكن من الصعب معرفة الدور الذي تلعبه تلك المشاعر الإسلاميّة الحقيقيّة، والدوافع من الرغبة الطبيعيّة في المشاركة في عمل أيّ شيء سيكون من المتوقع أن يعطي وقتاً ممتعاً للخروج على القانون والقيام بالنهب والسلب. لم يُظهر الشيوخ أيّ تفانٍ وثيق تجاه الأتراك، الذين خاضوا معهم نزاعات مستمرة طول حياتهم، بينما قدموا الطاعة لنا بمجرد أن أصبحنا في العمارة، وخلال الأشهر الثمانية عشر الماضيّة أظهرنا أنفسنا مخلصين بشكل معقول، ومستعدين بما يكفي لتلبية كافة المطالب الاستثنائية لتوفير العمالة في بناء الطرق والسكك الحديديّة، كما أقاموا علاقات ودية مع المسؤولين البريطانيّين.

الأراضي التي يشغلونها هي أملاك سنّية للحكومة العثمانيّة، كانوا يستأجرونها على فترات مدتها خمس سنوات لمن يدفع أعلى سعر في مزايده، لكن الحق الإلزامي للقبيلة في مناطقها، كان يحدّ من تدخل المزايدين، وعملياً لم تكن الحكومة التركيّة قادرة على تغيير ذلك. فكان يستحيل منح أراضي أبو محمد إلا لشيوخ من البيت الحاكم، فهم يملكون ويزرعون الأراضي حول القنوات الكبيرة على جانبي النهر أسفل العمارة، ويسكنون الأهوار عند أطراف ترع المياه. يعيش المزارعون والمعدان على حدّ سواء في بيوت من القصب، وهي تكاد تكون متنقلة مثل الخيام السوداء للبدو، وهم ما زالوا رحلاً ضمن حدودهم الخاصّة، وكانوا يتجنبون الاستيطان الدائم، خوفاً من التعرض للتجنيد الإجباري، لكنّ الشيوخ الحاكمين لهم أملاك في المدن المحليّة، في العمارة أو قلعة صالح، تماماً كما يملك شيوخ القبائل في الصحراء الغربيّة السوريّة منازلهم في دمشق، وأولئك الذين استأجروا الأراضي الزراعيّة نفسها من فترة إلى أخرى على مدى سنوات عدة، قاموا بالتالي ببناء منازل من الطابوق لأنفسهم في أماكن إقامتهم المعتادة. إن سلطة الشيخ في جميع الأمور القبائليّة هي العليا، في هذا -وكما هو الحال في جميع التفاصيل الأخرى- يتمّ الالتزام بالنظام الاجتماعي البدوي بحرفيّة. تنتقل النساء بحرية وهن غير محجبات بين رجال القبائل، وكثير من النساء العاديات حياتهم ليست سهلة، سواء في قرى القصب في الأهوار أو في الخيام السوداء في الصحراء، لكن قد يلعبن في كلتا الحالتين دوراً مؤثراً؛ فهناك سيدتان مرموقتان اليوم بين أبو محمد، من الأخوات والزوجات المطلقات للشيوخ، اللاتي يرفضن الشروع في مغامرة زوجيّة جديدة وعدن إلى منازل إخوانهن. وقد يقمن بإدارة الأراضي المخصّصة لهن بحماس لا يقلّ عن نشاطهن في إدارة شؤون الأسرة. إحداهن من المؤيدات لحقوق جنسها في بلاد ما بين النهرين (الصراحة تلزم الاعتراف بأنها امرأة متحكّمة) عهدنا لها لفترة وجيزة إدارة إحدى الأراضي الحكوميّة عندما ثبت أن ابن زوجها كان المستأجر للأرض في زمن الأتراك؛ لم يكن الحلّ سهلاً لكن هذه المهمّة كانت إلى حدّ ما خارج قدرتها. والسيدة الأخرى كانت معتادة على مرافقة شقيقها الشيخ في زيارته

الرسمية لبغداد، وحضور المقابلات عندما تذهب إلى منزله الريفي في العمارة، وتتعامل مع السماسرة وتجار الحبوب؛ امرأة عملية ومرحة، تستمتع بالقبيل والقال مع الضابط السياسي خلال جولاته، ولا تهتم بطول الرحلات عبر الأنهر والقنوات، سواء كان ذلك من أجل نقل عروس إلى منزل أحد الشيوخ الأقارب، أو لمسألة الهرج في إعادة العروس مرة أخرى، إذا لم تكن راضية عن الاستقبال الذي حظيت به. «بناتنا جميلات كالطيور والذهب»، قالت في وصفها لاستغلال من هذا النوع وقع حديثاً، وتركت التفاتة معبرة للخيال، في إبداء عدم الرضا عن بيت الزوجية الذي تمّ توفيره لمثل هذه الكنوز. ومع ذلك، لا بدّ أن يكون رفض التزويج أمراً نادراً، خصوصاً أن لشيوخ أبو محمد عدد هائل من الزيجات، ومن الطبيعي أن تجد لعائلة أربعين إلى خمسين طفلاً، وتزداد الأسرة عدداً بإضافة حشد من خدم المنزل، من العبيد الذين يبين شعرهم وملامحهم الزنجية على دمائهم الأفريقية، مع أن معظم تلك الأجيال التي عاشت في بلاد ما بين النهرين قد تغيرت بشرتهم الأصلية. ومثل زعماء شيوخ وسط الجزيرة العربية، يحتفظ كل شيخ حاكم بحارس شخصي مسلح ضمن الحاشية، يحصل على منحة من الأرض مقابل خدماته العسكرية.

وبشأن عائلته الكبيرة، من عبيد وحاشية، فإنّ للشيخ العديد من التوابع قد يصلون إلى مئات؛ وحسب الطريقة العربية، يُبقي بيته مفتوحاً لكلّ من يأتي للزيارة وتقديم التحية. تبلغ ضرائب الحكومة على تلك الأملاك الغنية أكثر من عشرين ألف جنيه إسترليني سنوياً في الوقت الحاضر، وقد كانت ضعف هذا المبلغ في زمن الأتراك، عندما كان يتمّ فرض الإيجارات من خلال المزادات الدورية لتحديث عقود الإيجار. وعلى الرغم من أنه قد لا يكون لديه الكثير من السيولة المالية تحت إمرته، فهو رجل ثري يعيش بوفرة على محصول ملكيته، حيث يعتمد موقعه على قدرته في توفير العمالة والحفاظ على المزارعين المتنقلين في حضنته. وقد يؤدي الطمر بسبب رواسب الأنهار إلى إخلاء القرى، وهذا يعتمد تماماً على قوة القبيلة والدخل المادي لها، فاحتمال حدوث انشقاقات كبيرة هو مصدر قلق للشيخ، في حال تشتت القوى العاملة وصعوبة إعادة تجميعها.

تُحدّد الظروف المادية تكوين مجتمع أبو محمد، فعلى طول النهر والقنوات الرئيسية، ترتفع الأرض بواسطة رواسب الطمي، ما يؤدي إلى مرور المياه في هذه القنوات الكبيرة عبر سلسلة من التلال المنخفضة بدلاً من وادي النهر؛ وعلى هذه التلال تنمو المحاصيل الشتوية من القمح والشعير، وهو عائد غير مؤكد يعتمد جزئياً على هطول الأمطار. وقد تضيء المساحات غير المحروثة من الأعشاب والأشواك وقرى القصب الصغيرة المتناثرة على الأرض المرتفعة جواً معيناً من العزلة وعدم الضيافة، والمزارعون العاملون فيها هم من سكان المناطق المجاورة الضعيفة، يخدمون في ظلّ شيوخ أبو محمد الأثرياء ويدخلون في علاقات قبلية مع أرباب عملهم. مع انحدار الأرض نحو الأهوار، تفسح المزارع المتناثرة الطريق لحقول الشلب (الرز) الممتدة، مع زيادة مصاحبة للسكان؛ أكواخ القصب الصفراء تصطف على طول القنوات في شوارع القرية الطويلة، حيث يخزن فيها قش الرز في الشتاء لمنع تأثير المطر والرياح الشمالية. وعلى الرغم من موادهم البسيطة،

إلا أنهم ينقلون انطباعاً عن الراحة والازدهار في الريف، الذي يتجلى من خلال ظهور قواهم البدنية النشطة، نتيجة التغذية الجيدة للسكان. هذه القرى هي موطن رجال قبيلة أبو محمد، الذين يحتفظون بأراضي الشلب الخصبة لاستخدامهم الخاص وكذلك للتجارة، وتتم الاستعانة بالأيدي العاملة الماهرة، حتى من الفلاحين العاملين في مزارع الحبوب القريبة. تنتهي هذه المناظر الطبيعية في القصب والمياه المفتوحة للأهوار، حيث تحتل جزر من مساكن المعدان الهضاب القديمة، الغنية بقطع الفخار الأثرية، والمشحوف الخفيف المغطى بالقار وهو الوسيلة الوحيدة للاتصال.

باستثناء منزل الشيخ المني من الطابوق، لا توجد من جهة النهر وحتى الأهوار، مساكن دائمة للمزارعين، كما هو الحال في الأسواق الصغيرة للمدن التي نشأت على أطراف الصحراء لتلبية احتياجات البدو. كذلك على قنوات الأنهار توجد بعض المستوطنات لسكان المدينة، تتجمع حول الأسواق المليئة بالبضائع القطنية والتمر والقهوة والتبغ والمتطلبات الأخرى البسيطة لحاجات السكان في الريف. يتأسس بعض التجار المخضرمين من الأصول النجدية هذه الأسواق، ويمكن تمييزهم بسهولة، بتلك الميزات الحميدة والآداب الحسنة، هذه المجموعة من أصحاب المتاجر، يعملون كذلك مديرين بالنيابة عن الحكومة؛ هم من السنة، ويتعاملون بازدراء كامل مع عملائهم، من الشيوخ إلى رجال الأهوار، لا يتزوجون إلا من عائلات تتبع أصولهم، حيث يجلبونهم من الزبير أو من أي مكان آخر على الحدود الصحراوية، ويحافظون بذلك على الدماء والتقاليد النجدية الأصيلة في قلب العراق.

على الرغم من الاضطرابات السائدة في ظل الحكم العثماني، فإن مهمة المسؤول الإداري لا تواجه صعوبات هائلة عندما يتم الاعتراف بالطابع القبلي لمشيخة أبو محمد واستغلالها للاستفادة من ذلك. لقد سعت الحكومة التركية، التي كانت أضعف من أن تسيطر على الشيوخ، إلى تفويض سلطتهم من دون تقديم أي بديل عنها.

فبدلاً من محاولة تهدئة الخلافات، اعتبروا أن العداوة والمنافسة بين القبائل والأسر هي أفضل ضمان ضد التوحد العدائي، وقبلوا بالاضطرابات المحلية باعتبارها أقل الشرين رعباً. كانت أساليبهم، التي اتبعت ببراءة كبيرة، ناجحة حتى الآن لدرجة أنهم تمكنوا من الحفاظ على ما يشبه الإدارة التي ستثبت إرثاً قيماً للحكام الأكثر قدرة.

عبدة النجوم في بلاد ما بين النهرين (8)

من الظواهر الغربية في بلاد ما بين النهرين وجود مجموعة من الناس استعاروا من كل الأجناس حولهم واتخذوا عادات من الجميع، ومع ذلك فهم معزولون تماماً عنهم اجتماعياً.

هؤلاء هم الصابئة، المعروفون للبعض باسم «عبدة النجوم في بلاد ما بين النهرين». وقد أشار إليهم بعض الكتاب على أنهم «مسيحيو القديس يوحنا»، لكن التسمية غير صائبة، لأن

«يوحنا» الذي يزعمون أنهم ملتزمون به ليس بالتأكيد قديساً، كما أنهم ليسوا مسيحيين بأي معنى للكلمة؛ هم الصابئة المذكورون في سفر أيوب، وليس الصابئة المذكورين في القرآن. ومع ذلك، فقد قبلوا خلال فترة الزعامة الإسلامية التفسير القائل بأنهم الصابئة المذكورون في القرآن، وذلك لحماية أنفسهم من الاضطهاد، لأن الصابئة المذكورون في القرآن مع المسيحيين واليهود باسم «أهل الكتاب». وبالتالي يجب تبجيل ذلك.

الاسم الصحيح علمياً لهؤلاء الأشخاص هو المندائيون، وتعني كلمة مندائي في لغتهم «تلميذ» وهم يشيرون إلى أنفسهم باسم «تلاميذ يوحنا». لغتهم هي المندائية، التي تنتمي إلى مجموعة اللغات السامية، وهي من أول أبناء العمومة للسريانية. ليس لديهم أدب مطبوع، مع أن القليل من مخطوطاتهم في أيدي علماء أوروبيين. كان الباحث الأول في المندائية هو المستشرق الألماني بيترمان، الذي جاء قبل حوالي ستين عاماً إلى العراق، وقضى عامين بين الصابئة في سوق الشيوخ. يتحدث الصابئة، فضلاً عن لغتهم، باللغة العربية، على الرغم من أنهم لا يلتحقون أبداً بأي مدارس عربية على حد علمي.

في القرن السابع عشر، كان عددهم حوالي عشرين ألف عائلة، لكن في الوقت الحاضر لا يتجاوز مجموعهم ثلاثة آلاف نسمة؛ يقطنون فقط في بلاد ما بين النهرين، يعيش عدد قليل منهم في بغداد، والغالبية العظمى قرب سوق الشيوخ. لا تجدهم أبداً على مسافة بعيدة عن المياه الجارية، لأن مبادئ دينهم تتطلب قربهم من المياه؛ ويعود سبب الانخفاض الكبير في أعدادهم، في المقام الأول إلى الاضطهاد من قبل المسلمين ثم إلى الفتنة الداخلية. علاوة على ذلك، تزوج العديد من نساءهم من المسلمين في السنوات الأخيرة، وبالتالي يختفي عرقهم بسرعة. لديهم ثلاث وظائف رئيسية، وهي صياغة الفضة، وبناء الزوارق وصنع الألبان. يُسمى زورقهم الخاص «مشحوف».. وتشتهر أعمالهم الفضية بصناعة بديعة، تمتزج صناعتها باللون الأسود والفضي في تصاميم بارعة؛ تركيبة هذه المادة السوداء، التي من المفترض أن تكون الأنتيمون، هي سر تجارتهم. في السنوات الأخيرة، كان العرب أكثر تسامحاً تجاههم بسبب قدرتهم على العمل في الصياغة وبناء القوارب، حيث لا يجيد العربي أي مهارة في هذه المهن.

دين الصابئة المندائية مزيج غريب من الوثنية البابلية القديمة والعبادة اليهودية والمسيحية والإسلامية، استعاروا من الديانة اليهودية الأضاحي والتطهير، ومن الديانة المسيحية الاحتفال باليوم الأول من الأسبوع، والتعميد، والعشاء الرباني وتقديس يوحنا المعمدان، ومن الديانة الإسلامية اتخذوا تعدد الزوجات.

كتابهم العظيم، المسمى سيدرا ربا، يحتوي على طقوسهم في شكل مجزأ إلى حد ما، ويقدم أدلة على أنها وضعت لمجموعة متنوعة من المؤلفين، وتحوي على عدد كبير من المتناقضات. من الصعب جداً الحصول على نظرة عن هذا الكتاب، على الرغم من بذل العديد من الجهود لتأمين نسخة منه؛ قبل بضع سنوات، نجح بعض الرحالة في سرقة

نسخة من كتابهم، لكن تمّ تقديم إخطار للقنصل وأعيد الكتاب إلى أصحابه، وعلمت أن هناك نسخة موجودة في مكتبة المتحف البريطاني، جنباً إلى جنب مع ترجمة لاتينية رديئة لم تكتمل أبداً. في عام ١٩٠٤، من خلال صداقة لأحد كبار الكهنة، سُمح لي بشراء نسخة بمبلغ اثنتي عشرة ليرة (تركية)، ولكن بشرط ألا أبيعها أبداً، لكن حينها -في اليوم التالي- كانت هناك تظاهرة كبيرة من قبل جميع الصابئة وبذلوا جهوداً جادة لإجباري على إعادة الكتاب؛ وتتم الآن ترجمة النسخة المعنية في أميركا. من السمات المثيرة للفضول في هذا الكتاب أنه يتمّ عكس نصف كل صفحة للسماح بوضع الكتاب فوق قناة ضيقة من المياه الجارية وقراءته بواسطة كاهن جالس على أيّ من الجانبين.

ومن كتبهم الأخرى «كتاب الأرواح» الذي يتكوّن ثلثاه من صلاة للأحياء وثلث صلوات على الموتى، ويحتوي هذا الكتاب أيضاً على تاريخ وفاة آدم، الذي يعتبر بالنسبة لهم من أعظم الأنبياء.

ويحتوي الكتاب الثالث على قداس الكهنة، وأخرى تتضمن مراسم الزواج، وحياة يوحنا المعمدان، وأطروحة في علم التنجيم وصيغ مختلفة للتعاويد والشعوذة.

اعتقادهم هو أن العالم نشأ مما يسمى «الفاكهة الأولى»، شيء مثل نظرية «أورفين» لبيضة العالم، وأن الخالق العظيم أوجد الحياة من هذه البيضة العظيمة، والتي من خلالها انبثقت الحياة مرة أخرى وكان يسوع المسيح، ولكن هذا الأخير سعى إلى اغتصاب قوة الأول، وبالتالي تمّ وضعه بين الكواكب مثل عطارد. وهم يعتقدون بأن السماء تتكون من أنقى المياه، بحيث لا يستطيع الماس قطعها، وفيها تدور جميع الأجرام السماوية بالإضافة إلى هذه الأرض. ويعتقدون أيضاً بأن البحار تحيط بالأرض من ثلاث جهات، ولكن في الجهة الرابعة يوجد الجبل الفيروزي، وهو الانعكاس الذي يعطي اللون الأزرق للسماء. ويعتقدون كذلك بأن ملكة الظلام تزوّجت النار وأنجبت ٢٤ ولداً، من بينهم ٧ كواكب بما في ذلك الشمس، و١٢ تمثل الأبراج الفلكية، والخمسة الباقية غير معروفة، وهذه الكواكب هي مصادر الشر للبشرية. يقع النجم القطبي في قبة السماء ذاتها، ولذلك هي قبلتهم في الصلاة، ولهذا السبب يُطلق عليهم اسم «عبدة النجوم».

يمارسون التعميد، حيث يستقبلهم الكاهن كل يوم أحد؛ كما أنهم يحتفلون بنوع من العشاء الذي يبدو تقليداً للعشاء الرباني المسيحي.

لديهم أماكن للعبادة، لكنها لا تسع سوى لاثنين أو ثلاثة من الكهنة، ومن شروط أماكن العبادة هذه أن تجري فيها تيارات صغيرة من الماء تُتلى فيها الصلوات. ولا تحتوي كنائسهم على أيّ أثاث، باستثناء رفوف تُحفظ عليها الكتب والأشياء الأخرى. يمكن أن يكون الكاهن من الرجال أو النساء، الدرجة الأولى هي درجة المبتدئ، وبعدها درجة الكاهن، ثم الأسقف، وأعلى مسؤول في الكنيسة هو «رئيس الكهنة» ورئيس الكهنة الحالي يدعى الشيخ ماهي

ويقيم في سوق الشيوخ. لا يجوز أن يكون لدى الكاهن أدنى عيب في جسده، لذلك فإن رئيس الكهنة هو أحد أكثر الشخصيات التي رأيتها في حياتي لفتاً للنظر. يجوز للمرأة أن تصل إلى رتبة الكهنوت بشرط أن تتزوج كاهناً فقط؛ ولا يجوز لهم لبس الثياب الداكنة، ولا تلبس نساؤهم اللون الأزرق، فهذا مخالف لدينهم.

وقد يتساءل المرء كيف سيتغير أمر هذه الفرقة الغربية في التربة الجديدة للإدارة البريطانية، إنهم مؤيدون لبريطانيا بلا شك، لأنهم كانوا دائماً معادين لتركيا.

هم لا يقصون شعرهم أبداً، وقد يتصف كل من الرجال والنساء بلا شك بالوسامة، في الواقع وسامة عالية، لدرجة أنه يمكن التعرف على الصابئة في الحال. لقد جندهم الأتراك في الجيش، لكن تمّ إعفاؤهم وتسريحهم بسبب استحالة تلبية مطلبهم الديني بأن يكونوا دائماً بالقرب من المياه الجارية!

(3) الحرب الليبية ١٩١١ والحرب البلقانية ١٩١٣ قبل دخول تركيا في الحرب العالمية الأولى.

(4) لعل المقصود نسبة السكان الشيعة في ولايتي بغداد والبصرة.

(5) تعني «الميثاق العظيم» باللغة اللاتينية، وقد صاغها النبلاء البريطانيون في القرن الثالث عشر الميلادي بهدف تقليص صلاحيات الملك ونفوذه وقدرته على الانفراد بالحكم.

(6) التبرعات الخيرية السنوية من مملكة الأودة Ouda في الهند إلى المدن الشيعية المقدسة في العراق.

(7) أسماء لوحوش في الأساطير اليونانية.

(8) وضع المقال القس الأميركي جون فان أيس الذي عمل في الإرسالية الأميركية في البصرة منذ سنة ١٩٠٢. انظر كتابه Meet the Arab المطبوع في نيويورك ولندن سنة ١٩٤٣، وقد ترجمه إلى العربية جليل عمسو بعنوان «أقدم أصدقائي العرب» سنة ١٩٤٩.

الجزء الثاني تركيا الآسيوية

مقدمة

تمت كتابة هذه المقالات بناءً على طلب مكتب الحرب خلال شهري حزيران وتموز من عام ١٩١٧. وقد اقترح أن تكون ذات أهمية لأفراد القوة الذين يخدمون في بلاد ما بين النهرين، والذين ربما لم تتح لهم الفرصة للتعرف على ولايات السلطان وراء ساحات القتال في غاليبولي والعراق.

غيرترود بيل

مكتب الحاكم المدني، تشرين الأول ١٩١٧.

مسح عام

في إحدى قصائد المعلقات السبع التي تعتبر من روائع الشعر العربي القديم، يوجد وصف لمرور عاصفة عبر وجه الصحراء، يصور الشاعر في أبيات تشتهر بروعتها القاسية، تجمع الغيوم المتراكمة، ووميض البرق، مثل لمعان الأيدي في الظلام، واندفاع السيول الجبلية التي تطرد الغزلان من مخادعها، وانهيار أشجار النخيل والمسكن في الواحات، يقول إن التلال كانت تتلبس بغيظ العاصفة مثل رجل ملفوف في عباءة كبيرة، ولكن بعدما انتشر الدمار في السهول بالمياه، انبثقت الحياة بألوان الزهور، كما لو أن بعض تجار اليمن قد نشروا بضاعتهم الملونة الكثيرة، وغنت القبرات كما لو كانت ثملة بالنبيذ المعطر؛ ولكن في مجرى المياه كانت هناك أجساد حيوانات ميتة، مثل بصيلات اقتلعت من الأرض.

بالنسبة لنا، نحن المقيمين في بغداد، يتبين لنا في هذا الجانب بوضوح، تراجع خطر الهيمنة الألمانية على آسيا، وبالنسبة للبعض منا، فإن حملة بلاد ما بين النهرين ليست سوى الفصل الأخير في التاريخ الذي كنا نراه منذ فترة طويلة. راقبنا الغيوم وهي تتجمع في السماء، ولكن مع ظهور التهديد الواضح، قليلون تنبأوا بتعاظم ذروة الخطورة التي كانت ستدمر الغرب والشرق على حد سواء؛ «من غريب إلى عسيب رأيناه ينكسر» يقول امرؤ القيس، كما نقول «من ريمس إلى أرضروم». حين ننظر إلى الطريق الذي تم الكشف عنه للطموح الألماني، حيث يظهر حلمه الآسيوي كمؤشر لسياسة التنمية الذاتية التي لا ترحم، والتي أدت إلى صراع عالمي، قد لا يكون من المبالغة القول إنه عندما وضع الإمبراطور فيلهلم الثاني إكليل الزهور التاريخي (والمثير للسخرية) على ضريح صلاح الدين في دمشق، تم حينها وضع القطار الذي أطلق قذيفة المدفعية لبدء الحرب في منطقة السوم

في فرنسا: إذا كان لا بدّ من خوض المعركة الرئيسية في أوروبا، وتكون المكافأة الحقيقية بشكل رئيسي في تركيا الآسيوية، وتكون هناك دراما نهائية في حقيقة أن الانتصار البارز الأول للحرب، وهو الاستيلاء على العاصمة الجنوبية لتركيا الآسيوية، هذا ما تمتّ تحقيقه ألمانيا في تلك المناطق التي أرادت أن تكون مكافأة لجهودها الهائلة.

إذن ما هي الجائزة التي كانت تستحق دماء الآلاف من المقاتلين الألمان، وكيف سيكون الفوز بها؟ ما الوضع الفعلي لهذه الأراضي التي كانت ألمانيا تعتزم إقامة إمبراطوريتها الشرقية فيها، وما هو وعدهم؟ هناك عدد قليل من الإنكليز الذين لديهم معرفة كافية عن الولايات الآسيوية في تركيا، ولم تكن هذه المناطق ذات جذب بالنسبة للسياح، بسبب غياب خطوط السكك الحديدية، وعدم وجود الطرق البرية الملائمة، فضلاً عن عدم توفر السكن وأماكن الإقامة اللائقة. كانت هناك الرحلات القصيرة تتم عبر الأرض المقدسة، والزيارات الخاطفة لمدن أزمير وأيفس، وقضاء بضعة أيام في الآستانة، حيث تكون الطرق البحرية من أهم مميزات تلك السفرات الممتعة، فإذا تمّ الوصول إلى دمشق فإنّ وادي نهر العاصي سيكون وراء الأفق البعيد وحلب مجرد اسم في الذهن. أما المناطق الداخلية من آسيا الصغرى فلن يكون لها وجود في الصفحات الممتعة لهذه المغامرات، ولم تكن سهول بلاد ما بين النهرين أصلاً ضمن تلك الأماكن التي يقودها منظمو الرحلات. وبالنسبة للمستثمرين من أصحاب رؤوس الأموال، فإنّ الضمان المالي في تركيا غير مؤكد لدرجة أنه لم تكن هناك وسيلة للمعرفة؛ خصوصاً أن بإمكان المستثمر أن يجد بالفعل مكاناً أفضل لأمواله في مكان آخر؛ صحيح أنه منذ أيام «الشركة الشرقية»، كانت بريطانيا العظمى على علاقات تجارية مع تركيا، واستمرت البيوتات التجارية القديمة القائمة في مدن ساحل البحر الأبيض المتوسط التقليدية، وفي الوقت نفسه كانت الشركات البريطانية في البصرة وبغداد لا تزال تسيطر على الحجم الأكبر في التجارة من جميع الأمم الأخرى، ولكن -سواء في أزمير أم في بغداد على حدّ سواء- كانت الأعمال التجارية مع الداخل تتمّ من خلال وكلاء محليين، وكانت أنشطتهم مقيدة، تماماً مثل أنشطة السياح، بسبب عدم وجود وسائل المواصلات، فضلاً عن مفهوم عدم الثقة السائد، فيما يتعلق باحترام حياة الناس والممتلكات في ظلّ السلطة العثمانية. تمّت مناقشة مشاريع السكك الحديدية الشاملة ومن ثمّ التخلي عنها، لم تقدم الحكومة البريطانية أيّ تشجيع لهذه المشاريع، وأظهرت ميلاً واضحاً للامتناع عن إعطاء التعهدات التي قد تؤدي فيما بعد إلى تعقيدات وتشابكات؛ وهكذا تمّ السماح لهذه اللحظة النفسية بالمرور، ليس بالضرورة من خلال اللامبالاة المتعمدة. لقد شرعت المؤسسات البريطانية في مجالات أخرى أكثر أماناً؛ كانت تركيا ستنهار، لكن مع الأسف، المحير وقوفنا في الحرب بلا داع، نيابة عنها، كما أظهرنا ذلك في حرب القرم. كان الأمل المتقد حينها، في أن نتمكن تحت جميع الظروف من الحفاظ على مكانتنا التجارية في بلاد ما بين النهرين والهيمنة السياسية في الخليج التي كانت تعتبر حيوية لسلامة الهند.

عمل السياسيون في ألمانيا على إيقاظ ذهن الشعب الألماني، في إدراك الثروة الكامنة التي تكمن خلف الواجهة في الزوال المحتمل للإمبراطورية العثمانية، ودفعوا مواطنيهم إلى إدراك المزايا الخيالية التي يوفرها التوسع نحو الشرق. لكن في فلسفة السياسة الألمانية، الحصول على مكان تحت الشمس يعني استبعاد جميع الآخرين من الوصول والاستمتاع بضيء هذا النجم، لهذا تطورت الفكرة المقررة في أن تكون تركيا ساحة للتجارة الألمانية بسرعة إلى فكرة أن تصبح تركيا مدرّبة عسكرياً، وخاضعة لسيطرة الألمان لتكون سلاحاً في النزاعات القادمة. لقد تمّ كشف شبكة من الدسائس وصلت لنا منذ اندلاع الحرب، رسمت عبر بلاد فارس وإلى الهند للإطاحة بمنافسهم الأوروبي الوحيد في آسيا، الذي كان يُنظر إليه بتخوّف حقيقي، قد تكون هذه الدعايات والشائعات ضارة لنا، لكن كانت تركيا هي الخاسر في الطريق إلى الخراب، تحت سلطة وإرشاد الألمان. لقد عملت تلك المثل العليا للنزعة العسكرية الكارثية على خنق الحركة الدستورية منذ ولادتها في عام ١٩٠٨، تسربت الأموال التي كان ينبغي إنفاقها في إنشاء مشاريع الريّ في البلاد، إلى جيوب شركة «كروب» في شراء الأسلحة، وفي الإنفاق غير المنتج على الجيش، وكان الأمر الأكثر كارثية في إمبراطورية مكونة من العديد من الإثنيات، حيث كانت السياسة الألمانية المتمثلة في تقوية ودعم العنصر التركي، في عزمها على سحق جميع العناصر العرقية الأخرى بالأقدام. كان من المقبول بين الألمان العاملين في تركيا، من المدربين العسكريين إلى علماء الآثار، أن الأتراك وحدهم من يستحق الدعم، أما إلى أيّ مدى يمكن تنفيذ هذا المبدأ، فقد تمّ توضيح الأمر خلال الحرب، حين تمّ ارتكاب مذابح الأرمن واضطهاد العرب، باسم الدفاع عن السيادة العثمانية.

تمتد الإمبراطورية الآسيوية لتركيا من البحر الأسود شمالاً إلى الخليج العربي جنوباً. وتشمل الجسر الجبلي الممتد بين أوروبا وآسيا والذي نعرفه باسم آسيا الصغرى، وهي منطقة من سلاسل الجبال العالية والهضاب المرتفعة الممتدة من الحدود الفارسية نحو الغرب، وتنزل عبر الوديان الخصبة إلى سواحل البحر الأسود والبحر الأبيض المتوسط؛ وبين امتداد الهضاب السورية والكردية لسلسلة جبال الأناضول، تقع أراضي المراعي الشاسعة التي تشكّل الحوض الجنوبي للرافدين العظيمين. وقريباً من خط عرض بغداد -على مسافة حوالي ٣٥٠ ميلاً من الخليج العربي- يقترب نهرا دجلة والفرات في حدود عشرين ميلاً عن بعضهما البعض، ثم يتباعدان مرة أخرى، لتطويق منطقة ذات خصوبة هائلة، التي تشكّل إقليم العراق. اسمياً، كانت هيمنة السلطان العثماني تغطي شبه الجزيرة العربية، لكن عملياً لا تتعدى أبعد مما يمكن أن تصل إليه السكك الحديدية، أي إلى الحجاز؛ وباستثناء هذه المقاطعة والمدنيتين المقدستين، لم يكن أيّ جزء آخر من الجزيرة العربية ذا أهمية حيوية للحكام الأتراك، مع أنهم صرفوا الكثير من المال والدماء في محاولتهم الحفاظ على نوع من السيطرة المزعزعة على اليمن.

لذلك، وبشكل تقريبي، يمكن تقسيم المناطق الآسيوية التركية إلى قسمين، الجبال في الشمال والسهول في الجنوب؛ يسكن المناطق الجبلية الأتراك والأكراد والأرمن، جنباً إلى

جنب مع مستوطنات كبيرة من اليونانيين -يقيم أغلب هؤلاء بالقرب من الساحل - بينما أراضي السهول يستوطنها العرب ويمكن اعتبارها بحق امتداداً لشبه الجزيرة العربية. وتعتبر المناطق السهلية التي تحدها الجبال الغربية -ويمكن القول سوريا بأكملها- منذ زمن سحيق موروثاً لمهاجرين من شبه الجزيرة العربية، في حين أن حدود الجبال الشرقية، في جزئها الشمالي والوسط، هي مناطق كردية -بينما جزؤها الممتد إلى الجنوب منفذ الطريق إلى بلاد فارس- وتسكنها قبائل من أصول فارسية. وباستثناء سلسلة الجبال السورية، فإنه يتوافق تماماً مع الحقائق، بافتراض، أن الجبال تشكل حدود العراق الناطق باللغة العربية، فمن شمال شرق بغداد، بمجرد أن تبدأ الأرض بالارتفاع نحو التلال الواطئة لجبل حميرين، والتي كانت مسرح المعارك الأخيرة، يتناقص السكان العرب ويختفون لتحل محلهم القبائل الكردية. وبالطريقة نفسها عند الحدود الشمالية لبلاد الرافدين، حيث تبدأ السهول الواسعة بالارتفاع تدريجياً في تموجات طويلة نحو جبال الأناضول، وتجد هنا أيضاً المواطنين الأكراد من القرى يتدفقون في الربيع ليختلطوا مع القبائل العربية في المراعي الصحراوية. أصبح من الواضح جداً تجنب العرب لمناطق المرتفعات، فعند جبل سنجار -وهي الأرض المرتفعة التي تخترق المناطق القبلية السهلية في شمال بلاد الرافدين، وهي على مستوى خط عرض الموصل- يتحول السكان بالكامل تقريباً إلى اليزيديين، وهم عبدة الشيطان من الأكراد، وليسوا من العرق العربي، بينما تعود في استيطان السهول الشمالية بعد سنجار، القبائل العربية من شمّر وطّي وغيرها.

ليس هناك مناظر طبيعية أكثر جمالاً تستقبل عيون المسافر وهو يقترب من الجدار الجبلي لكردستان قادماً من الجنوب، حيث يمتد خلفه عالم فسيح من الأراضي المنبسطة، وباستثناء جبل سنجار، ليس هناك مرتفع بارز يقطع امتداد تلك السهول الطويلة من رأس الخليج العربي، فالمنحدر الصاعد يكاد يكون غير محسوس تقريباً، ولا يمنح المسافر إحساساً بالارتفاع الشاهق الذي يقع خلف وهج حرارة الجو، وحين يرفع عينيه يتفاجأ بمدينة ماردين واقفة منتصبة في منتصف الطريق أعلى السماء. ذلك الملجأ والملاذ في الجبال الشمالية -إلهي كم مرة تمّ انتهاكها- لتلك الأقليات الضعيفة وأصحاب المعتقدات المكافحة منذ آلاف السنين. لقد وفرت الحماية في ثناياها، لبقايا من الشعوب القديمة، التي لا تزال تمارس طقوساً غريبة لا يعرفون أصلها. هنا وجدت المسيحية موطى قدم مبكر، حين قام رهبان الباسيليوس بنحت صوامع الكهوف الخاصة بهم في الصخور الوعرة، وحتى المذابح الأخيرة التي قضت ليس فقط على الأرمن ولكن جميع الطوائف المسيحية الأخرى، حيث لا يمكن أن يكون هناك شك بتكرار حدوثها، فقد كانت مجتمعات كبيرة من الكنيسة السريانية تتعبد في العصور القديمة، في تلك الأضرحة المنتشرة في مرتفعات طور عابدين التي يصعب الوصول إليها، وغرباً إلى ماردين، ومن الشمال إلى سيرت؛ في حين إن النساطرة الأقوياء، وهم البروتستانت في الإيمان قبل ظهور البروتستانتية في أوروبا، احتفظوا بمكانتهم جنوب بحيرة فان.

ما بعد ديار بكر، يتذبذب الخط البياني للأعراق، فسكان أورفة إلى الجنوب هم بشكل أساسي من الأتراك، والأناضول هي أرض الترك، وإن كانت في الواقع ليس حصرياً، فكما أوضحنا هناك الأرمن والكثير من اليونانيين والأكراد حيث لا تزال تنتشر قبائلهم، كما كانت في أيام زينوفون سائدة في الجبال على جانبي الحدود التركية الفارسية. ومع ذلك، فإن هضبة الأناضول العالية هي موطن الفلاحين الطورانيين والتركمانيين نصف الرحل والأفشار ويوروكس، وتتجمع حقولهم الزراعية حول القرى الموجودة على الهضبة ومراعيهم الصيفية المرتفعة في الجبال، حيث قد تعثر على أكاليل من الثلوج حتى في شهر آب (أغسطس) في بعض الأماكن المخفية. في المنطقة الوسطى من البحيرات، وفي الوديان التي تغذي ميندر وهيرموس وسنغاريوس وحالي، تنتشر القرى الصغيرة المبنية من الخشب المخبأة في غابات من أشجار الفاكهة، مع وجود نقاط الحراسة فوقها، بعضهم يونانيون والبعض أتراك، وقبل الحرب كان اليونانيون يتواجدون في كل مكان، يمارسون عملهم بشكل حرّ سواء في مهنة التجارة أم قطع الطرق، وأنت تمرّ عبر الجبال، التي تجوبها الأساطير، حتى الوصول إلى البحر.

وأنا أكتب الآن في بغداد، تمرّ في ذاكرتي رؤية السواحل الجميلة والمرتفعات الواسعة؛ جمال الصباح الربيعي عندما تتناثر بتلات أزهار الفاكهة البيضاء على طرق السفر المتلائة، وأيام الظهيرة الصيفية الحارقة، عندما تجد كوخاً لرجل تركي يوفر لك الراحة والمرطبات في ظل حرارة السهول، ولكن وراء التمتع غير المحدود بالمشهد الرائع والترحيب اللطيف يبرز الانطباع بحقيقة الأرض المهجورة، فعلى الرغم من سخاء الطبيعة بهذه العطايا إلا أن خمسمئة سنة من الحكم التركي لم تسفر عن أي عمل لصالح السكان، وألقي فوق الأناضول، بظلال الصراع الديني، الذي تعمق منذ أن بدأت الحرب، بالانتقام الذي تعامل معه الحكام الترك والألمان نحو شعب عاجز.

اسمحو لي أن أعود إلى ذلك التركي الجريح اللطيف، كما عرفته وكما رأيته أخيراً كأسير حرب، كان ذلك في البصرة، مباشرة بعد الانتصارات الكبيرة الأولى لجيوشنا في الكوت، كان عدد من جرحى الجنود الأتراك الذين تمّ أسرهم في منطقة الصناعات، مستلقين في أحد مستشفياتنا في شط العرب، وهناك قمت بزيارتهم واستدعيت بعض العبارات التركية المكسرة، لأسألهم عن المدة التي قضوها في الجيش، ومن أين جاؤوا، جميعهم أتراك من الأناضول، أحدهم من قيصري، والآخر من أزمير، والثالث من قونية، والرابع من إسكي شهير على حافة تلال فريجة - بلاد الجمال، «Giuzel Memleket»، تنهدوا وابتسموا مرة أخرى، عندما انضمت إلى المديح، يبالم؟ ماذا علينا أن نفعل؟ وهزوا رؤوسهم المغطاة بالضمادات ومدوا أيديهم للحصول على سيكارة أخرى؛ انتهت الحرب بالنسبة لهم - نه يبالم؟ ماذا بمقدورنا أن نفعل.

هؤلاء هم الرجال الذين لم يعرفوا كيف يوجهون أقدارهم ولا مصير أولئك الذين تحت سلطتهم، في طريق السلام، تحت حكمهم لبلاد الرافدين، حيث كانت قد لعبت حتى نهاية

العصر العباسي دوراً كبيراً في تاريخ العالم، غرقت في النسيان، وسقطت آسيا الصغرى في حالة خراب. سَتُطَبَّقُ عليهم كلمات كتابهم المقدّس -ومن سيقول تُطَبَّقُ ظلماً؟- {إِنْ يَشَأْ يُدْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ}.

الولايات العربية: بغداد

لو كنت أودّ أن أكتب وصفاً للولايات العربية في تركيا قبل خمس سنوات، لكنت بدأت بلا شك بسوريا، لكن منذ الاحتلال البريطاني لبلاد الرافدين، يتحتم عليّ الآن أن أبدأ ببغداد، ليست الغاية احتفالاً بانتصارنا، ولكن لأن سوريا لا تزال أسيرة بيد الأتراك بينما تمّ تحرير بغداد. لا أحد يستطيع أن يخطئ في الجوّ السائد هنا، من تطلّع وأمل، وإن كان مع بعض الاستياء وعدم الرضا، بلا شك، بسبب الأساليب العسكرية الصارمة والشكاوى من عدم تأسيس حكومة مدنية يمكن أن تبدأ العمل في الحال، ولكن الجميع يتحمل الأمر بآمال قلبية صادقة وشعور بالارتياح. ومهما كانت أخطأنا ونواقصنا، فسوف يمرّ بعض الوقت قبل أن تتلاشى من أذهان الناس ذكريات السنتين والنصف الماضية من القمع التركي القاسي الذي تعرضت له حياتهم والتهديد اليومي لممتلكاتهم. إن السياسة التي انتهجتها جمعية الاتحاد والترقي تجاه العرب أثناء الحرب، لا يملئها إلا اليأس من صعوبة التوافق مع التوجهات والطموح العربي، مصحوبة بالثقة العمياء للأتراك بمقدرتهم على سحق جميع المطالب العرقية. وفي الواقع، لم تكن جمعية الاتحاد والترقي بعيدة عن الحقيقة؛ كان العرب عاجزين فعلاً من تحقيق تطلعاتهم، يعوزهم التسليح والتنظيم، وما زالوا يدفعون ثمن ذلك الخضوع. بالكاد رحبت بنا إحدى العائلات الكبيرة في بغداد، ولكن نصف دزينة من أفرادها يحاربون مع الأتراك، لهم ابن في صفوف الجيش العثماني على الحدود الفارسية، وآخر في الموصل، وثالث في إسطنبول وهكذا، ولا يمكن إنكار أن القليل منهم ذهب طواعية. كما أنفق الأثرياء مبالغ طائلة في الرشاوى لإنقاذ أبنائهم وأقربائهم من الخدمة العسكرية، ولكن بعد أن خدعهم خليل باشا وجماعته، شددوا الأمر عليهم وأجبر الشباب على الالتحاق بالجيش. كان قد تمّ نفي بعض من أبرز وجهاء المدينة إلى الأناضول أو إلى إسطنبول، وبعضهم -من المحظوظين- لجأ إلى القبائل أو ظلّ مختبئاً بين الفلاحين في أراضيهم، ليعود فرحاً عندما تمّ طرد الجيش العثماني؛ لكن ماذا عن تشتت العائلات والجهل التام بمصير أولئك الذين ما زالوا يحاربون في صفوف العدو، فإن سُحب الحرب ما زالت تحلق فوق بغداد، وهي تحوم بثقلها فوق رؤوس أعيان المدينة. بالنسبة لأبناء العائلات المشهورة يظنون أنه من العار الفرار من الجيش، حتى وإن كانت الخدمة إجبارية، والأمل الوحيد أنهم قد يسقطون بشرف كسجناء حرب في أيدي البريطانيين.

دع الذين ليسوا على دراية بالظروف أن يلقوا بالحجر الأول، نحن في موقع الحدث سمعنا الكثير مما تمّ إلقاء اللوم عليه، ونرى يومياً رجالاً لم يتعافوا بعد من آثار القلق الطويل. الرجال المتميزون فكرياً الذين لم يكن لديهم حبّ للمؤسسات التركية، وكانوا يأملون في

العون من التقدم البريطاني، حفزتهم مخاوفهم على التحدث والكتابة ضد المعتدي الكافر؛ كنت أتناقش بعد وصولي إلى بغداد مع شخص لم يمنح قلمه للدعاية التركية؛ التغييرات المفاجئة التي شاهدتها على ملامحه، كان محدثي رجلاً يتمتع باستقلالية استثنائية في الشخصية، ولسان لاذع جعله في خطر كبير قبل وصولنا، وعندما قام ليذهب قلت له: «ليس هناك الكثير من الأشياء التي تخاف منها». فأجاب بصلافة: «لا سمح الله، أنا أخاف من الاستبداد».

العذاب الذي خضع له العرق العربي، أخشى أنه، لا يمكن أن ينتهي بالكامل إلا مع خروج تركيا من الحرب، كان هذا شعوري عندما كنت لا أزال في البصرة، وكانت المناسبة عند زيارة للأسرى الجرحى في مستشفياتنا. من بين الضباط الأتراك كان هناك شاب عربي تعرّض لإصابة بالغة وجرح في الرئتين؛ وكان الآخرون -المصابون بجروح طفيفة- يضحكون ويمزحون حوله، وعندما سألت إذا كان هناك من يتحدث العربية، أشاروا إليه بلامبالاة، مع إجابة: «هذا عربي إذا كنت تريد واحدًا». فتحت الفتى عينيه عندما سمع لساناً بلغته وأخبرني بصوت خافت عن عائلته، لقد جاء من عائلة محترمة في بغداد، ثم شدّ نفسه وتمتم بنفس عسير، «هل هناك أخبار عن الشريف؟» قلت له إن كل شيء على ما يرام بخصوص القضية العربية في الحجاز. سألتني: «هل أنتم معه؟» فأجبت: نعم بيننا تحالف. فحمد الله وبدت كلماته مثل «دعاء سمعان» في المسيحية. قلت له: كيف عاملكم الأتراك، كعرب بينهم؟ حملقت عيناه من الغضب، قائلاً: «كالكلاب، والله مثل القذارة».

ومع وجود بعض هذه المشاعر الواضحة جداً والمنتشرة على نطاق واسع، يبدو هناك تناقض لا يمكن تفسيره بانضمام القبائل العربية للقتال إلى جانب الأتراك، لكن مرة أخرى لا يمكن فهم وجهة النظر العربية إلا من خلال دراسة محايدة للظروف الحقيقية، فالحرب تعتبر بالنسبة للقبائل العربية عقاباً من الذات الإلهية ليس لديهم أي دخل مباشر بها، لقد وقعوا في صراع القوى الجبارة، القوة النسبية التي لا يمكنهم قياسها، فهي مثل الوحش الصغير الذي وجد نفسه بشكل غير متوقع على وجه سندان عملاق، يسارع بشكل أعمى، بهذه الطريقة أو تلك للهروب من ضربات المطرقة. كان الحفاظ على جلدتهم سالمة هو شاغلهم الرئيسي، صحيح أن الأتراك كانوا أسياداً سيئين، لكن من سيقول إن الإنكليز سيكونون أفضل في النهاية؟ لا يوجد في تجربتهم الكثير للاختيار بين هذين الفريقين من الجيوش المتصارعة، كلاهما يسحقان حقول القمح ومن المحتمل جداً أن يحرقا الخيام ويستوليا على قطعان الأغنام. على الأقل الأتراك مسلمون، ولم يفشلوا في توجيه نداء قوي لإثارة تحيزهم الديني، وهم في الوقت الحالي يورعون الذهب بين القبائل ويبثون التحذيرات ويثيرون الرعب حول النتائج الوخيمة التي سيجلبها استيلاء الكفار على أرض المسلمين. لقد كانوا أسياداً هنا منذ أجيال، أفلا يكون لكلمتهم وزن؟ كل شيء -كما يقال- مثل رمي القرعة، لكن عملة القرعة هذه مصنوعة من الذهب التركي، موزونة بحكمة وترو، ومع ذلك لدينا سجل في السنتين الماضيتين من الإدارة في ولاية البصرة يؤكد أن القبائل التي أتت إلينا أثبتت ولاءها.

نعيش في بغداد أوقات مثيرة، يتوقف الفلاحون في الحقول لإلقاء التحية عليك حين تمضي، وبائعو الفاكهة الذين يطوفون في الأسواق ببضاعتهم، يجيبون على تحيتك بنهار سعيد، بالدعوة لغمس يدك في سلالهم وتناول ما يعجبك من الفاكهة، ويتقدم الأطفال دوماً للتحية بابتسامة. أصحاب الجاه في المدينة، منفتحون على طريقتهم الخاصة، ولديهم أكثر من مجرد فاكهة وابتسامات لتقديمها. بغداد هي مركز نشاط ثقافي وفكري جدير بالاعتبار، يعيش هنا رجال من الكتاب والشعراء المشهورين في جميع أنحاء العالم العربي، قد لا يتخالطون بسهولة مع الغرباء، لكنهم مثل علماء العصور الوسطى يؤثرون العزلة ويجهدون في المعارف الشرقية بمثابرة، من خلال مؤلفاتهم المجلد تلو الآخر. في وقت ما قد تأتي وتذهب إلى منازلهم، وسيترددون عليك عندما تعقد معهم الصداقات والتي لن ينساها أي من الجانبين، حين تبنى على أساس من الثقة. وإذا كانت شهرة مؤلفي الكتب العديدة هؤلاء بالنسبة إلى الغربيين قد تبدو غير واقعية، فإن هذه هي رؤية رجال البلاد لهم، فليهم تأثير كبير وموافقتهم هي إجازة مرور لا جدال فيه في الإسلام، وسوف يفتح لك الأبواب في أماكن بعيدة، حيث يمنح التعلم المعتدل حزمة من التأمل الذاتي، ويمنحك حرية ما يقدره الشرق من صحة جيدة، ويتغاضى عن أخطائك ويبرئ مساوئك.

من المؤكد أن أحد المفاتيح لقلوب هؤلاء المجتهدين العزل، هو الاهتمام الذي يبديه علماء الآثار الأوروبيون بمبانيهم القديمة، لا أقول إن هذه ناتجة عن قناعة تاريخية وفنية كاملة بتلك المباني، لكن هناك فائدة إضافية، في أن الإدارة الأفضل للأوقاف الدينية لن تؤدي فقط إلى الحفاظ على تلك المباني من التدهور، بل ستعمل أيضاً على توفير الأموال اللازمة لتأهيل وإدامة تلك المباني الدراسية المتداعية التي يستخدمها العلماء مع تلاميذهم؛ وهناك أيضاً ما يبعث على السرور، بأن مثل هذه الآثار للعمارة العربية من القرن الرابع عشر التي بقيت في بغداد سوف لن تتعرض للخراب والاندثار. لقد «عمد الأتراك عن قصد إلى تدهور مساجدنا»، قال إمام وراعي الجامع والمدرسة المرجانية، التي تحوي كنوزاً من أعمال النقوش الحجرية الرائعة «ولكن بمساعدة الحكومة العليا لبريطانيا العظمى». لم يمس أحد المسجد نفسه، عدا ما فقد من نصف الطابوق المنقوش لطاق الإيوان في فضاء القاعة، الذي نُقل إلى برلين أثناء الحرب، ويجب علينا الإصرار في إعادة ترميمها، ليبقى هناك أحد الأمثلة النفيسة للفن العربي من العصور الوسطى في عاصمة المشرق.

ما زالت بغداد غير ملوثة بابتذال أوروبا وتجهم بلاد الشام، لقد عمل الأتراك على فتح طريق في المدينة، وعر وغائر دون نظام، مقطعاً أوصالها، ولأنها أصبحت في أيدينا الآن، كأمانة وفرصة أيضاً، علينا أن نمضي بها إذا تمكنا لتكون مثلاً رائعاً للحضارة العربية الحديثة، ولتكون مدرسة للهندسة المعمارية، والبراعة في طرق وأساليب البناء، وكذلك في الجمال والوسامة على حد سواء، كما كانت دائماً. وباستثناء مبنى المقيمة البريطانية -النشاز- تحمل جميع المباني الحديثة في المدينة طابعاً محلياً مميزاً، وربما من أعظم مفاتن بغداد -على العكس من القاهرة- احتضانها للنهر، الذي يمر في وسطها ويعطيها الاتساع والمهابة في مخطط المدينة.

إنها عاصمة لمنطقة غنية بالتنوع العرقي والسياسي، فإلى الشرق تصل في رحلة تستغرق يومين -ربما بضع ساعات في سيارة- إلى القبائل الكردية التي تقدم اختلافاً لغوياً واضحاً عن جيرانها العرب؛ ليس هناك حواجز اجتماعية مانعة بين الشعبين، فهما يكملان بعضهما البعض، وإن كانا لايتشابهان. كما تستقطب ولاية بغداد المزارات الدينية في كربلاء والنجف والكاظمية وسامراء، وهي مراكز مقدسة لدى الشيعة، تؤمها أعداد كبيرة من السكان والزوار الفرس والهنود؛ بينما يزور الحضرة القادرية التي تقع في داخل بغداد المسلمون السنة من الأنحاء كافة، وخصوصاً من تخوم الهند. هناك شعور عام -خصوصاً لأولئك الذين يدركون العقلية الشرقية- بأن لا مناص من أن بغداد يجب أن تتمسك بقوة بوجهتها الآسيوية.

إن الخصوبة المذهلة للأرض في الولاية، صمدت إلى حد ما حتى أمام سوء الإدارة العثمانية، فالمناطق الزراعية على نهري دجلة وديالى لا تمتد إلا قليلاً إلى ما وراء ضفاف النهر، وكذلك الثروة الهائلة لنهر الفرات تنتظر بطريقة مماثلة نظاماً علمياً لمشاريع الري. فالأنهار تترك على حالها، فيتجمع الغرين ويؤدي إلى طمي القنوات الموجودة، وتنشأ بذلك منافذ مائية جديدة، وعندما لا تكون هذه كافية تتعرض مساحات كبيرة من الأراضي إلى السيول والفيضان. وتشكل الأساليب غير المسؤولة للعرب أنفسهم القاعدة الأساسية لهذا الأذى، فما إن تعمل المياه مساراً جديداً، حتى يعمد المزارع مستخدماً المساحي والجرافات بتدمير هذه القنوات، من خلال اندفاعه إلى توزيع تدفق المياه، فيبذل تلك الجهود الكبيرة في المساهمة باختفاء القنوات. على نهر الفرات، أدت التغييرات في فرعي القناتين الحلة والهندية إلى التخبط في المناطق الزراعية.

خلال السنوات التي سبقت قيام شركة جاكسون ببناء سدة الهندية، كاد يجف نهر الفرات القديم الذي يمر عبر الحلة، فأصبحت المدينة نفسها تعتمد على مياه الآبار خلال الصيف، وذبلت بساتين النخيل على مجرى النهر السفلي، وهجر الفلاحون قراهم الطينية؛ كما انتقل رجال القبائل من تلك الأماكن إلى فرع الهندية، ما شكّل اضطراباً اجتماعياً يصعب تخيله. لكن بعد بناء السد على نهر الهندية، وبدء تدفق جزء من المياه عائداً إلى قناة الحلة، بدأ رجال القبائل في العودة إلى مقرهم السابق؛ وعند اندلاع الحرب، واختفاء الإدارة التركية تماماً، والتي كانت تفتقر إلى الكفاءة في أحسن الأحوال، أدى كسر حواجز الترع إلى تبيد المياه وضياح سيول الفيضانات التي كانت تروي حقول الشلب السهلية، لتتجمع في بحيرة شاسعة في المنطقة الصحراوية إلى الغرب من بغداد، ونتج عن ذلك تشتت جديد للفلاحين من القبائل؛ وكنا نرى عندما يأتي الشيخ للسلام وليعبر عن مبايعته للحكام الجدد، ويحصل منهم بهذه المناسبة على الهدايا التي تكافئ زيارته الأولى، ثم يتقدم بطلب الماء، هبة الهدايا التي تمكّنه من تربية المحاصيل الوفيرة، وبالتالي يعمل على إعادة رجال القبائل المتشردين وتوفير سبل عيش مضمونة لهم، بمساعدة ودعم السلطة الحكومية العليا والرحمة من الله سبحانه وتعالى. وفي الحقيقة فإنّ تطعاتهم هذه تتماشى تماماً مع رغبات الحكومة العظمى التي لا تهتم حصرياً بمصالح فلان وابن فلان، كما يهتم هو بنفسه، ولكنها

تقرن مطلبه بمطالب رفاقه على طول الأنهار. وليس هناك غاية أخرى يمكن أن تكون أكثر أهمية لأية حكومة من موضوع تسوية الأراضي، وتوفير عمل سلمي ومربح من شأنه أن يحد من نزعات تنقل القبائل والتقليل من الاحتكاك واختلاق المشاكل مع جيرانهم، وإزالة بعض الأسباب والدوافع، فالاختلافات عادة بين القبائل تنشأ بشكل رئيسي من الخلافات حول الأرض وتوزيع المياه، عندها ستتحوّل في الوقت نفسه إلى عوامل فاعلة لتصحيح أحد أشد المخاطر التي تنشأ عن النزاعات العامة، وهي بالتحديد النقص العام في توفير الغذاء.

للعربي حنكة ومهارة في صنع الثروة، سيخبرك بمنتهى الصراحة أن الطمع هو أقوى دافع لأفعاله، لكنه أيضاً منفق كبير للمال، يحب أن يعيش حياة جيدة وأن يرتدي ملابس غنية، إنه مهووس بصور التحضر والرفاهية، ليس فقط المادية بل أيضاً الفكرية، وسيطالب بالمؤسسات التعليمية القوة ذاتها تقريباً في التعبير عن رغبته في اقتناء الملابس الحريرية ومعلبات فاكهة الأناناس. جشعه يجعله حريصاً على استغلال الثروات الطبيعية لبلده، باستعمال الآلات والمضخات الزيتية والأدوات الزراعية الحديثة، عندما تكون مناسبة لاحتياجاته، ستجد جميع هذه الأشياء سوقاً جاهزة، وستبادر البيوت التجارية الكبيرة في بغداد - خاصة لليهود والمسيحيين الذين أقاموا فروعاً في أوروبا حتى قبل الحرب - بكل طاقتها في توفير احتياجات مدن البلاد، بمجرد توفر وسائل النقل لاستيراد تلك البضائع. ما يجب أن نعمل عليه في بغداد في أقرب فرصة هو زيادة تدحرج كرة التجارة، فمع الارتفاع الفوري لمستوى المعيشة للسكان، واستثمار موارد الأرض غير المنتجة، سيتطلب الأمر توفير الكثير من الحاجيات الضرورية، فليس هناك قلق، لاقتصادنا في المستقبل.

على السلطات العليا أن تضع في اعتبارها أن بلاد ما بين النهرين لم تعان من أضرار مادية كبيرة نسبياً من تأثير الحرب، بغض النظر عن الإهمال التركي، وهو سمة ثابتة حتى في وقت السلم، فمن السهل محو آثار المعارك بسرعة كبيرة في جميع مناطق العراق، فليس هناك مبانٍ قائمة قد تمّ تدميرها بالكامل، وبالتالي لا يوجد ما يتطلب إعادة بنائه. عندما صعّدت في نهر دجلة، لم يكن قد مضى أكثر من شهر منذ أن اندلعت المعارك البطولية حول مدينة الكوت، ولكن رأيت أن علامات الصراع المرير اختفت بالفعل، فالأعشاب نمت بسرعة وغطت جميع الخنادق. قام العرب بنصب خيامهم السوداء في مناطق التخيم المعتادة، حيث تسرح الأغنام لقضم العشب وتغطس الجواميس في المياه الضحلة، على طول ضفاف النهر، بعدما فرّ الجيش التركي في حالة اضطراب جامح مع قيام قواتنا بملاحقتهم. وفي مدينة الكوت - ذلك المشهد التذكاري الصغير المأساوي للهزيمة والنصر - وقفْتُ تحت ظلال أشجار النخيل عندما مررنا بها قبل طلوع الفجر، ستتمّ إعادة بنائها في غضون أسابيع قليلة، وإعادة توطين سكانها وبتّ الحياة فيها من جديد بشكل أفضل، والأمر كذلك مع كلّ أراضي بلاد ما بين النهرين، فليبارك الله فأل الكوت. لا يمكننا في أيّ مكان في الكون الذي مزقته الحروب أن نبدأ بسرعة أكبر في تعويض الخسائر الهائلة التي تكبّدها البشرية.

الولايات العربية: النهران

تتغير الطبيعة الجغرافية لبلاد الرافدين بشكل جذري في مناطق شمال مدينة بغداد. تمتد حدود الدلتا الغربية على بعد حوالي ستين ميلاً إلى الشمال، وتتخذ الأنهار، بدلاً من اتباع مسار متعرج عبر المساحات الواسعة من التربة الغنية الخصبة، طريقاً ضيقاً نسبياً في وديان قليلة الانعطاف، وتشق مسارها خلال سهول كتلية صلبة أو من الحجر الجيري. هناك حزام من تربة غرينية في الوديان، لكن في السهوب تمتد أساساً مكونات صخرية تغطيها طبقة خفيفة من التربة. لم يكن هناك في أي وقت من الأوقات زراعة مستمرة بين الأنهار أو في بادية الشام إلى غرب نهر الفرات، على الرغم من وجود آثار سلسلة من المستوطنات الدائمة بين هيت وتدمر، تعود إلى فترة لا تتعدى بداية العصر التاريخي الحالي، كانت تحوي مدناً محصنة بشكل بدائي، مبنية بالصخور، وتستمد مياهها من عدد لا يحصى من الآبار التي أصبحت الآن مسدودة في الغالب بالأتربة والقمامة. قد يكون هناك قدر معين من الزراعة حول هذه الأماكن، وربما كذلك في وادي حوران، الذي يستنزف الصحراء الجنوبية السورية، لكن قلة هطول الأمطار والمياه الجوفية على حد سواء، حالت دون الزراعة المكثفة.

على مسافة ١٥٠ ميلاً أو أكثر شمال سامراء، يكون حوض وادي دجلة جافاً بشكل استثنائي، غير أن نهر الزاب الصغير يتدفق عبر منطقة خصبة ليصب في نهر دجلة. ومن هذا المصب يتسع وادي دجلة شمالاً، حيث تمتد حقول القمح الشاسعة التي قد تصل في السنوات الجيدة، إلى تلال مدينة آشور القديمة وكالح. المزارعون على النهر هنا هم قبائل شبه مترحلة، مثل الجبور وبعض القبائل الصغيرة - صغيرة ليس في العدد ولكن من حيث الأهمية السياسية والاجتماعية. إلى الشمال من نينوى، تقع مدينة الموصل الحديثة، التي تبدأ عندها خصوبة الأراضي الآشورية؛ حين يلامس العشب المزهر ركابك وأنت تركب الخيل في توجهك نحو حافات التلال الكردية، وتشق الجداول الجبلية طريقها عبر الوديان الضيقة التي تكتظ بأشجار الحور والجوز والدلب وتتنازع حول كل قدم من الأرض مع أشجار الفاكهة والكروم ومحاصيل الحبوب.

يعتبر نهر الفرات أكثر خصوبة من نهر دجلة، إذ تنمو أشجار النخيل بحرية إلى أقصى الشمال حتى مدينة عانة، سواء على الضفاف أم على الجزر في منتصف النهر، وهي تحمل آثاراً تاريخية بوصفها مستوطنات قديمة جداً. كما توجد مناطق غنية من الأراضي المزروعة بالحبوب على طول الوادي، من شأنها أن تزرع على نطاق أوسع لولا غزو وتخريب البدو. وإلى الجنوب من دير الزور هناك أيضاً حزام آخر من الأراضي الخصبة الوفيرة، والوديان الشرقية الغنية للخابور والبليخ، يمكن تطويرها بشكل عظيم. يأتي نهر الفرات من جبال طوروس، بالقرب من البحر الأبيض المتوسط لدرجة أنه ربما كان ليختار

ذلك البحر ليفرغ نفسه فيه. كانت السهول على جانبي النهر ذات يوم مخازن ضخمة للحبوب، ما أسهم في غنى كثير من المدن الشهيرة، مثل قرقيش عاصمة الحثيين، وهيرابوليس مقام الآلهة السورية، وكارهي، كما تظهر في الميادين الخربة في حران، وأوديسا وهي مدينة أورفة الحديثة. من هنا يمكن أن ندرك مدى أهمية التوقعات للفائدة المكتسبة من إتاحة الفرصة للوصول إلى هذه المناطق الشمالية بواسطة سكة حديد بغداد، لقد تمّ إثبات ذلك بالفعل من خلال حقيقة أنه قبل أربع سنوات، عندما كان رأس السكة الحديد يقترب من الفرات في قرقيش، بدأ الأثرياء العرب المغامرون في دمشق والبصرة بشراء جزء كبير من الأراضي الواقعة على الروافد العليا لنهر جقجق، شرق نصيبين، وكانوا يهئون أنفسهم على الأرباح التي سيحصلون عليها عندما يتمكنون من نقل محاصيلهم من الحبوب بالسكك الحديدية إلى البحر في ميناء الإسكندرونة. في السنوات الجيدة، يكفي هطول الأمطار هنا، لزراعة المحاصيل دون الحاجة إلى الري الاصطناعي، وهذا صحيح أيضاً بالنسبة للمناطق الخصبة لنهر دجلة، والتي يمكن أن يقال إن أربيل هي مركزها، وإن الزاب الأسفل هو الحد الجنوبي لها.

بين نهري دجلة والفرات، من بغداد شمالاً إلى الخابور وجبل سنجار، يسكن السهوب المفتوحة عرب رحّل لا يزرعون ولا يحصدون، كما يحتلون الصحراء بأكملها بين الفرات وسوريا. إن تاريخ هذه التحالفات القبلية، بقدر ما يمكن جمعه معرفياً، يتحكم بها عامل سيطر على المسار التاريخي لبلاد العرب منذ الأيام الأولى، وهو التدفق المستمر شمالاً لشعوب شبه الجزيرة العربية. ربما كانت الأسباب الكامنة وراء هذه الحركة معقدة. إن التغيير التدريجي في الظروف المناخية التي تنطوي على حركة التجفيف البطيئة، والضغط الناتج عن زيادة عدد السكان على تربة تزداد فقراً أكثر من أي وقت مضى، فضلاً عن فرص التوسع شمالاً بسبب الضعف أو الإرهاق السياسي للولايات الشمالية المجاورة، وهو من العوامل الأكثر أهمية، أدّى إلى الهجرات المبكرة للساميين إلى بابل واحتلال بلاد آشور. كما نشأت موجات أخرى من السيطرة العربية في دمشق وما حولها، ولم يكن الفتح الإسلامي سوى واحد من تلك الظواهر الكثيرة المماثلة. كما لم يكن هناك معرفة للمجموعات القبلية، التي ما زالت موجودة كما هي اليوم، إلا عند اقتراب العصر الإسلامي. مع هذا، ليس لهؤلاء القادمين الأوائل، وجود بين البدو الأصليين اليوم في أواسط سهول بلاد النهرين وبادية الشام، وهي المناطق التي أجبروا على التخلي عنها لجحافل أقوى قادمة من الجنوب. توجد هذه القبائل القديمة على أطراف مناطق الهجرة، حيث تجدهم نصف مستقرين ومجبرين على حرق التربة والزراعة لعدم توفر المساحات الواسعة اللازمة لحياتهم البدوية. وهكذا فإن قبائل قيس والموالي هم من سكان القرى الواقعة في أقصى حدود بلاد الرافدين. أما قبائل طي، فقد كانت شهرتها كبيرة جداً في أوائل العصور الوسطى، حتى إن اسمهم مثل في آسيا الصغرى، كل الوجود العربي، وهي تشارك المراعي الشمالية الشرقية القصوى مع القبائل الكردية. وليس من النادر أن تنشطر بعض المجموعات القبلية وتنفصل عن طريق التحالفات الاضطرارية. كما إن قبيلة الزبيد، وهي

إحدى أقوى القبائل في شمال العراق، لاحظت وجود بعض من رجالها يجوبون الصحراء جنوب شرق دمشق.

يحتفظ رجال القبائل ببعض الذاكرة عن أصلهم وتاريخهم، وعادة ما يكون مخططها العام صحيحاً، بقدر ما يتوفر من وسائل لإثبات ذلك. فهناك، على سبيل المثال، تجمع قبلي قديم جداً يُسمى بني تميم. وهو معروف جيداً في تاريخ ما قبل الإسلام، ومن المعلوم والمؤكد أنهم احتلوا في القرن الخامس وسط شبه الجزيرة العربية بأكملها. وأن غالبية سكان الواحات النجدية هم اليوم من بني تميم، ولكن حدثت هجرة مهمة منهم إلى بلاد الرافدين في حدود العصر الإسلامي وتناثرت أقسام من القبيلة عبر سهول العراق وحتى جنوب المرتفعات الفارسية. في أحد الأيام جاء أحد شيوخ العراق من بني تميم ليعبر عن احترامه وطاعته لنا، بعد فترة وجيزة من احتلال بغداد، وأثناء حديثه سألته عما إذا كان على اتصال مع أقاربه البعيدين في نجد. أجاب: قبل فترة ليست طويلة، جاء رجل من بني تميم من نجد يبحث عن أقربائه. ذهب إلى بني تميم في الحويضة، ولأولئك الذين حول نهر العظيم، وإلى بعض المشايخ على نهر دجلة، لكنه لم يستطع أن يقنع نفسه بأنهم من يسعى إليهم. وأخيراً جاء إلينا في عقرقوف (وهي منطقة تقع إلى الغرب من بغداد)، وعندما كان في ضيافتنا، سألنا: ما هو وسمكم، (وهو علامة الجمل الخاصة بنا) أجابنا، بأنه «شريط ودائرة»، وفرح وقال: هذا هو وسمنا أيضاً فأنتم عشيرتي، رغم أننا لم نتقابل منذ أجيال. وتعجب كيف نحن على مذهب الشيعة، وهم كلهم وهابيون في نجد. «هذه هي الدنيا»، قال الشيخ، متقبلاً ضمناً البديهية القائلة بأن الإيمان تحدده البيئة.

البدو الذين يجوبون في الصحارى الشمالية الآن، لم يبدووا الظهور حتى منتصف القرن السابع عشر، عندما توجه قسم كبير من قبائل شمر من المنطقة الشمالية لوسط الجزيرة العربية باتجاه بادية الشام، مما أبعد سكان القبائل السابقين من أمامهم. واتبعت عنزة في أعقاب شمر، وأجبرتهم على عبور الفرات إلى شمال بلاد ما بين النهرين، واحتلت كامل بادية الشام حتى شمال حلب. ثم عبروا هم أنفسهم الروافد الشمالية لنهر الفرات وصادروا المراعي بين الخابور والبليخ. هذان التحالفان القبليان هما اللذان يتحكمان في الأوضاع القبلية لبلاد الرافدين. إن العداء الدنيوي لبعضهم البعض هو المحرك الرئيسي لأفعالهم، وبالتالي، كانت الغارات والغارات المضادة، عبر نهر الفرات أو الخابور هي حصيلة العلاقة المتوترة بينهم. لم ينجح الأتراك أبداً في وضع حد لمعاركهم. كانت الحكومة تقوم بالحركات العسكرية المفاجئة في بعض الأحيان، والتي لا تختلف كثيراً عن الغزوات القبلية نفسها، من أجل لجم أحد الشيوخ المشاغبيين من وقت لآخر، بدلاً من ممارسة السيادة الحقيقية عليهم. ولطالما لجأ المسؤولون العثمانيون بشكل كبير، إلى المبادرات الغادرة والوعود الكاذبة، لكن القبائل كانت تتملص دوماً من الخضوع والطاعة الدائمة، وتذهب آمنة بعيداً في الصحارى، ساخرة من الحكم التركي. ومثل كل البدو، فإنهم يعتمدون على القرى والمدن في حافات الصحراء في الحصول على المواد الغذائية والملابس والأدوات، ناهيك عن الكماليات الأساسية مثل القهوة والتبغ. لذلك لا ينبغي أن تواجه الإدارة الحازمة

والحكيمة صعوبة كبيرة في السيطرة عليهم. فالبدوي كما هو ذلك الكائن الجائع، الكسول، الذي يملك دون شك تلك الشخصية الاجتماعية الرومانسية الفاتنة، المحرومة من مفردات الحضارة. إنه اللص الذي لا بدّ من ترويضه ليكفّ عن النهب والسلب الفوضوي، إذ ما من قوة تستطيع كبح جماحه، حين تتعارض مصالحه الخاصة مع مصالح المجتمع. وهو لا يرغب أيضاً في رؤية تحول الأراضي الصحراوية المفتوحة إلى مناطق زراعية، تحرم الأغنام والجمال من الرعي على الأعشاب البرية، ولا يودّ رؤية بناء الطرق الخارجية العامة التي تحرمه من سرقة القوافل والتجار، ونهب البريد وابتزاز المسافرين، حين تتحسن الظروف الأمنية والحراسة الجيدة في طرق المواصلات وخطوط التجارة. إحلال السلام شيء لا يطيقه؛ وليس لديه أدنى رغبة في فضّ مطالب الدم والثأر التي طالما منحته الإثارة والحماس للوفاء بالواجبات القبلية. لكن هذه الميول والرغبات يمكن وقفها، على الرغم من أنها متجذرة بقوة. تلك القبائل التي تحولت إلى الزراعة على ضفاف الأنهار، والتي كانت من البدو الرحّل منذ بضع مئات من السنين، أصبحت الآن قروية تحت تنظيم قبلي، وقد أدرك بعض شيوخ البدو الكبار تلك الميزة القوية لاستملاك الأراضي. وعلى الرغم من أنهم ما زالوا يتباهون بأنهم من أبناء البدو وغير مقيدين، لكنهم في الواقع أصبحوا مرتبطين بتلك الأملاك والعقارات والبساتين في المناطق السكنية. وهكذا فإن فهد بك بن الهذال، الشيخ الكبير لقبيلة عنزة الشرقية، الرجل الذي أكسبته الحكمة والحصافة، وأصله الرفيع، احترام القبائل البدوية بأكملها من نهر الفرات إلى دمشق - وقد كان ضيفاً جليلاً في بغداد - لديه أملاك على قناة الحسينية غرب كربلاء، وله فيها سندات ملكية تركية، وقد أقام عليها مخازن كبيرة. ما من شك في أن عملية تسوية الأراضي، كان يمكن أن تتسارع لو طبقت سياسة مختلفة عن سياسة الباب العالي نحو القبائل. ومع أن حبّ الثروة، وهو السمة العامة التي تهيمن على البدوي، كما تؤثر على أخيه الفلاح في الحقول والمزارع في العراق، رغم أن الإدارة العثمانية السيئة لا تقدم سوى حوافز قليلة لكسب المال، فإن الشيء الوحيد الذي لا جدال فيه هو أن البدوي في اللحظة التي يستقر فيها بشكل دائم في أي مكان، يمكن لمسؤول عثماني الوصول إليه، وسوف يكون عرضة للابتزاز. كما إن الخوف الدائم من السوق لأداء الخدمة العسكرية، يجعل التنقل وعدم الاستقرار رادعاً مقنعاً.



حسن السهيل شيخ عشائر بني تميم في عقرقوف قرب بغداد

لا يوجد أي أثر لمناطق سكنية في السهوب بين النهرين حتى تصل إلى الخابور، حيث عثر المنقب لايارد على خرائب المدن الآشورية. وإلى الشرق، ترتفع فوق مستوى الأعشاب النامية تلك الآثار الضخمة للبارثيين في مدينة الحضر، والتي حاصرتها الجيوش الرومانية ثلاث مرات عبثاً. ورغم الخراب ما زالت تمثل عاصمة الصحراء، إذ يعتبرها كبار مشايخ شمر ملكاً لهم، وينصبون خيامهم في الربيع حول قصورها. عندما نصبت خيمتي هناك عام ١٩١١، كانت تحت سيطرة لواء تركي أرسله إلى هناك والي بغداد، ناظم باشا، من أجل استحصال الضرائب على رؤوس الأغنام والإبل، التي طال انتظارها - وكانت على حد علمي، هي المرة الأخيرة، حين أجبرت القبائل على دفعها. آبار المياه في الحضر هي الآن وربما كانت دائماً شديدة الملوحة. على بعد حوالي ميل من أسوار المدينة تجري المياه المرة لمنخفض الثرثار، والتي يأتي مجراها من جبل سنجار، حيث يسلك مساراً موازياً إلى حد ما لنهر دجلة حتى يفرغ نفسه في الأهوار شمال عقرقوف. لقد ذُكر في لوح مسماري رائع تركه لنا أحد الملوك الآشوريين الأوائل، عندما قام بغارة كبيرة من بلاد آشور بقصد نهب مدينة بابل، لكنه وجد بابل كبيرة جداً وليس بإمكانه فتحها فأقنع نفسه في رحلة

العودة بالبحث عن الغنائم عن طريق الفرات والخابور. كان منخفض الثرثار في يومه مالحاً كما هو في الوقت الحاضر أي بالكاد يصلح للشرب، فكتب يروي كيف أنه جاء بجيشه إلى الوادي، وكانوا يسحبون الماء طوال الليل، ولكن المياه العذبة كانت تُنقل للملك من نهر دجلة.

في رحلة طويلة لمدة يومين إلى الشمال من الحضر تنقلك إلى جبل سنجار حيث تقترب من الأعراق غير العربية. هضبة سنجار هي معقل اليزيديين، وهم شعب جامح يرعب القبائل العربية في تلك المنطقة حتى حدود نهر الفرات. ويختلف العلماء فيما يتعلق بأصلهم. فهم يتكلمون اللغة الكردية، وعائلة مشيختهم تستقر شمال شرق الموصل، حيث يقع ضريحهم الرئيسي، ويدعون أنهم ينحدرون من قبيلة طي العربية؛ ويقول بعض الدارسين إنهم من العرق الأرمني، مع أنهم لا يتمتعون بصفاتهم الجسدية، والبعض يقول إنهم من اليهود، والله أعلم. ضريح الشيخ عادي في الجبال فوق الموصل، عبارة عن مبنى صغير يشبه المسجد، كان قد دُمّر بشكل متكرر، له نقش ثعبان أسود وزخارف غريبة أخرى محفورة حول الباب، لكن رمز إيمانهم هو الطاووس المقدس الذي يمثل الشيطان نفسه. هم يعرفون باسم «عبدة الشيطان»، وهو ادعاء ظالم للغاية؛ إنهم لا يعبدون بل يسترضون قوة الشر فقط. ومهما كانت معتقداتهم، فإنهم تحت حماية العالم المسيحي اليوم. فمنذ اندلاع الحرب، تخلص اليزيديون من نير الحكام الأتراك، وهم الآن يحمون في جبالهم الصخرية عدة آلاف من النساء والأطفال الأرمن الذين أنقذوهم من أيدي الأتراك في الصحارى جنوب نصيبين. بالنسبة لأولئك الذين يعرفون تاريخ اليزيديين، يدركون هذه العلامة المهمة الرائعة للقيام في هذا العمل الإنساني. فمثل كل الطوائف الصغيرة التي أُجبرت على حماية طقوسها من خلال حجبها في سرية، وبالتالي تحملت الاتهامات بأعمال الشر المخفي، عانى اليزيديون اضطهاداً طويلاً الأمد على أيدي جيرانهم المسلمين والمسيحيين على حد سواء. ومرت أوقات كان يذبح فيها «عبدة الشيطان» مثل النعاج في قراهم الجبلية أو يؤخذون إلى السهول ليجدوا الموت أو ما هو أسوأ في انتظارهم، وكانت تجربتهم الخاصة مع الوحشية العثمانية هي التي تكمن وراء العناية الكريمة التي حرّرت الأرمنيات. كما إنهم لا يقدمون المثال الوحيد على نهضة المضطهدين لإنقاذ المضطهدين. لقد جاء القزلباش أيضاً من أواسط الأناضول، لمساعدة الأرمن بطريقة مماثلة، وحافظوا على أعداد منهم بأمان في وديانهم التي لا يمكن اختراقها.

أثارت معاناة القومية الأرمنية السخط والشفقة، وتأثرت جميع الطوائف بمشاهد هذه القسوة غير المبررة، وكان المسلمون يتنافسون مع المسيحيين في التعبير عن اشمئزازهم من هذه الأعمال. وعلينا ألا ننسى أنه لم يكن هناك اضطهاد للأرمن في الولايات العربية، وإلى حد ما ليس هناك تعصب ديني حقيقي بين المسلمين العرب. قد تحدث حالات فردية من المشاعر أو الأحداث العنيفة، تماماً كما قد تتأثر بعض القبائل الشاذة بالدعوة إلى الجهاد المقدس، ولكن لا توجد بلدة أو منطقة عربية لا يعيش فيها المسلمون والمسيحيون في انسجام، إن لم يكن في صداقة. المسلم هو الحاكم ويطالب بامتياز، لكنه يحصرها في

حدود معقولة. لم يتعرّض الأرمن في بغداد ودمشق للتهديد أبداً، وعلى الرغم من أن الأتراك في دمشق باعوا الأرمنيات علناً في السوق العامة، وجد بعض الفتيات طريقهن من الشمال إلى منازل المسلمين في بغداد، وعوملن بلطف حتى أتينا نحن ووفرنا لهن الحماية.

باختصار، هذه هي بلاد ما بين النهرين، دولة عربية باستثناء القبائل الكردية على حدودها الشرقية، هي أرض المراعي ذات السهول الغنية بالزراعة على طول الوديان والمساحات الواسعة الصالحة للزراعة في الشمال، وكذلك في أطراف الجبال الكردية إلى الشرق. بلاد ما بين النهرين هي في الأساس مجال الرعي والحراث. ثروتها المعدنية قليلة الأهمية نسبياً. آبار القير في هيت، المشهورة منذ أيام البابليين، مع الينابيع الكبريتية المصاحبة لها؛ وآبار البترول ذات الجودة المحدودة في القيارة جنوب الموصل -هي بلا شك مرتبطة ببحيرة البترول الجوفية التي لا تنضب في جنوب غرب بلاد فارس- وهناك مقالع من الحجارة الجيدة على نهر الفرات أسفل عانة، وقليل من الفحم في جبال حميرين، وهناك الملح في وادي الثرثار، هذا هو كل ما يوجد من المعادن المستغلة. ليس من الضروري الغطس تحت التربة للعثور على الثروات؛ عمق المحراث قد يكفي.

الولايات العربية: سوريا

في الكتابة عن سوريا يجب أن أكتب كما عرفتھا، على الرغم من أن ذكرياتي عنها، كما أخشى، لا تشبه سوريا اليوم. وعندما يطرد الحكم التركي من دمشق وحلب قريباً، سنعلم بالتفصيل ما النتائج الكارثية لحكم جمال باشا، وإن كنا بالفعل سمعنا ما يكفي لنعرف أن سوريا تعيش الآن كشبح مأساوي لما كانت عليه. لا أستطيع التفكير في هذا الخراب، دون شعلة من غضب شديد ورغبة في الانتقام من الأتراك والألمان، وقد نجح القليل من أفعالهم المقيتة، في إثارتها في داخلي. من الجنوب إلى الشمال، ومن حدود صحراء شبه الجزيرة العربية إلى جبال طوروس، أعرف جيداً سوريا الجميلة وكنت ضيفة على سكانها، من المسلمين، واليهود، والمسيحيين، والدروز، والنصيرية، كلهم على اختلاف طوائفهم، يرحبون بالضيوف، ويبدلون لهم الخدمة بكل لطف. كان لي مع العديد منهم أكثر من مجرد معرفة عابرة. لقد نشأت بيننا صداقة؛ صداقة تتجدد من سنة إلى أخرى، لذلك في العودة إلى دمشق أو حلب، أعود إلى حلقة لجماعة مألوفة من الأصدقاء. لقد نشرت الصحف التركية مصير كوكبة من أولئك الذين يحملون أسماء لعوائل لامعة لا يمكن أن تتواري دون أن يلاحظها أحد. فلم يسلم شخص واحد من كل عشرين على قيد الحياة، إذ حُكم عليهم بالإعدام من قبل محكمة جمال الدموية في لبنان، أو أرسلوا مع عائلاتهم إلى منافي مجهولة في آسيا الصغرى، حيث من غير المحتمل أن يعودوا في يوم من الأيام. قلة منهم شقوا طريقهم إلى مصر أو عبروا الصحراء إلى البصرة ليكونوا تحت حمايتنا. هذه المجموعة فقط يمكننا القول بالتأكيد إنها نجت من حنق الأتراك. أما بالنسبة للمرافقين البسطاء، الذين كنا نعول عليهم في الكثير من الرحلات، من خدم، وأصحاب البغال

والجمال، فلا بدّ من أنهم شاركوا السكان القرويين مصيرهم المشترك. لقد أجبر الشباب من الأعمار الصغيرة على الانضمام إلى الجيش التركي، وأخذوا الرجال الأكبر سناً إلى عمل السخرة، ليموتوا من العمل القاسي والمجاعة في ظل القادة العثمانيين الطغاة. ونسأؤهم، من الزوجات والأمهات اللواتي بذلن قصارى جهدهن من أجل رعايتنا عندما كنا نعود من رحلاتنا معقرين بالأوساخ، لا بدّ من أنهن تحمّلن مصيراً لا يقلّ مأساوية.

ليس هناك من رادع يمنع جمعية الاتحاد والترقي عن استخدام العنف الشديد تجاه سوريا، ولا حتى يتطلب الأمر أي مبررات من وجهة النظر التركية - الألمانية. كانت سوريا عقل الحضارة العربية الحديثة، ومكان ولادة الحركة العربية، وهي الرابط بين الولايات العربية، من أطرافها الشرقية والغربية، لبلاد ما بين النهرين وشمال إفريقيا. لقد جعلها موقعها الجغرافي على اتصال وثيق بالفكر السياسي الأوروبي، كما إن التدفق السنوي للسياح إلى دمشق والأراضي المقدسة أعطى الأوروبيين اهتماماً وجدانياً بالبلد والسكان، وإيماناً بحقيقة أن لبنان كان يُدار بموجب تعهد دولي يضمن للقوى الدولية مسؤولية لا يمكنهم التنصّل منها، مما جعل جمعية الاتحاد والترقي في مواجهة مباشرة مع ظروف مقبلة بشكل خاص. كان الحزب الذي طالب باللامركزية على أساس عرقي، فاعلاً في سوريا منه في أي مكان آخر، وكان من المرجح أن تجابه الاحتجاجات الأوروبية، بممارسات أكثر قمعية من جانب الحكومة العثمانية، فجاء اندلاع الحرب للخلاص من هذه العقدة. لم يكن لألمانيا أن تعترض على اضطهاد العرب أكثر مما اعترضت على مذابح الأرمن. هكذا حانت الفرصة الذهبية لإخضاع الشعوب العربية دون أي عوائق من التدخل الأجنبي، فسهل للأتراك والألمان شق طريقهم لإنهاء حياة هذه الأمة. كما لم يكن العرب مستعدين للمقاومة، فهم يفتقرون تماماً للتعاقد، وهذا أمر متأصل في مجتمع لم ينجح أبداً في الخلاص من أصوله القبلية، وكان هناك دوماً تعارض مع أي اتحاد أو تجمع وطني. في أحسن الأحوال، كان هناك ما يزيد قليلاً عما يمكن وصفه بالوطنية المحلية، وهي وحدة امتدت إلى أبعد من حدود البلدات الكبيرة. لكنها تفتقر إلى التنظيم الشامل، لذلك خضعت البلاد بسهولة دون مشقة.

يجب الاعتراف بأن العناصر التي يتكون منها سكان سوريا متنوّعة بشكل غريب، ناهيك عن التناقض. ففي غرب نهر الأردن، هناك الصراع والتنافس الديني، وإن أصبح أقل فاعلية مما كان عليه في السابق. وفي شرق الأردن يؤثر تفكك النفوذ القبلي في تنمية شعور وطني حقيقي. قد يسود تجانس أكبر في مناطق دمشق وشمالها، ولكن حتى هنا، تعمل كل طائفة دينية منفصلة عن الأخرى، من مسلمين ومسيحيين من كل الطوائف، فضلاً عن النصيريين والإسماعيليين؛ كل طائفة تدور حول محورها الخاص وتعتبر ارتباطها بالنظام الذي تشكّل منه، جزءاً غير مهم نسبياً.

أحد أسباب عدم وجود نزعة وطنية حقيقة شاملة في سوريا، على الرغم من أن سكانها بشكل أساسي هم من العرب، يكمن في أن غير العرب يرون أن لهم إرثاً إلزامياً دينياً خاصاً.

فوفقاً للتخمينات المبالغية، فإن يهود فلسطين قد يشكّلون ربع سكان الولاية، وللمسيحيين الخمس، في حين أن الباقين هم من المسلمين العرب. كان هناك تعزيز للهجرة اليهودية بشكل غير طبيعي عن طريق الدعم المالي والإعانات من أصحاب الملايين المتدينين في أوروبا. لقد تمّ ترسيخ أقدام هذه المستوطنات الجديدة الآن، وأصبح لها اكتفاء ذاتي إلى حدّ ما. من دون شك، إن آمال المتدينين بإمكانية قيام دولة يهودية مستقلة في فلسطين يوماً ما، أصبح قائماً، على الرغم من أنه قد يتساءل البعض عما إذا كانت هناك رغبة حقيقية بين اليهود المحليين في رؤيتها تتحقق، إلا ربما كوسيلة للهروب من الاضطهاد التركي؛ ربما تكون هذه الآمال أكثر حيوية في قلوب أولئك الذين يعيشون بعيداً عن جبال فلسطين الصخرية، وليس في نيتهم أساساً تغيير موطنهم. بدأ اللورد كرومر مسروراً بكلامه عن محادثة أجراها حول هذا الموضوع مع أحد أشهر اليهود الإنكليز، الذي قال: «إذا تمّ إنشاء مملكة يهودية في القدس، فلن أضيع أي وقت في التقدم لشغل منصب السفير في لندن». وبصرف النظر عن انتشار مثل هذه المشاعر، هناك اعتباران يستبعدان مفهوم قيام دولة فلسطين اليهودية المستقلة عملياً. الأول هو أن الولاية كما نعرفها ليست يهودية، وأن لا المسلمين ولا العرب سيقبلون بالسلطة اليهودية. والأمر الثاني أن العاصمة، القدس، لها قدسية بنفس القدر في الديانات الثلاث؛ اليهودية والمسيحية والإسلامية، ولا ينبغي أبداً، إذا تمّ تجنبها، أن توضع تحت السيطرة الحصرية لأي فصيل ديني واحد، بغض النظر عن مدى دقة التعهد في حفظ حقوق الديانتين الأخرين.

وسواء كان من الممكن تحويلها إلى مركز لأصحاب الملايين أم لا، فإن فلسطين لمحبي الأشياء البسيطة، لديها جاذبية فريدة. فهناك صخور الحجر الجيري الرمادي، وبساتين الزيتون ذات اللون الرمادي - الأخضر الملونة مثل طبق السيلادون الثمين، ومزارع الكروم في المرتفعات التي لا تزال تمرح فيها الثعالب الصغيرة، وفي الوديان شديدة الانحدار، تمتلئ حافات الشقوق الصخرية بزنابق النشا، والسيبريديوم، وشقائق النعمان وزهور بخور مريم. وعلى ساحل البحر المتوسط تنتشر بساتين البرتقال التي تشتهر بها يافا، وفي المناطق البرية القاحلة في يهودا، جنوب فلسطين، تنحدر فجأة في الأراضي الزراعية ودرجات الحرارة المرتفعة في وادي الأردن. أما ثروة المناطق الجبلية، وهي الجزء الأكبر من فلسطين، فتكمن في زراعة الكروم والزيتون والذرة، وليس هناك شيء غيره.

في رأيي، يقع عبر نهر الأردن أفضل ما في سوريا، من ممالك أيدوم وموآب إلى الجنوب، وجلعاد إلى الشمال، حيث تمتد رمال الصحراء إلى القرب من الانحدارات المفاجئة التي تشكل حوض البحر الميت. ليس لهذه الصحراء مثيل في أي مكان آخر، فهي مراعي كبيرة ممتدة، تهجرها قطعان الإبل العائدة للبدو، وقطعان الأغنام للقبائل شبه المستقرة، بضعة شهور فقط خلال موسم الصيف. في المناطق الزراعية عمد الفلاحون الأشداء، وكثير منهم مسيحيون - وهم من أكثر مسيحيي سوريا ضراوة باستثناء حلب - إلى استغلال أراضيهم في زراعة الحبوب، حتى تخوم الأراضي العشبية، للحصول على أفضل الموارد من هذه الزراعة المربحة وإلى آخر حدود مواقع المستوطنات الزراعية القديمة. ولكن ما وراء

خطوط هذه الأراضي المزروعة، وأطلال القرى القديمة لعصور ما قبل الإسلام وربما إلى حد كبير، ما قبل المسيحية، توجد آثار هائلة لحزام من القلاع الرومانية، وليميتس تراجان، وسبتيموس سيفيروس، ودقديانوس، وبالتوغل أكثر نحو الشرق سوف نجد المنحوتات والجداريات لمنازل الصيد العائدة لخلفاء الدولة الأموية في الشام، التي تستخدم عادة كماوى من قبل الرعاة الرحّل. قدم المسيحيون في هذه المناطق من مادبا، التي تقع شمال البحر الميت، ومن السلط، وهي بلدة صغيرة ربت بين بساتين الفاكهة على الحافة الجنوبية لجلعاد - ويتفاخر سكانها بأن أسلافهم تلقوا تعاليم الإيمان من شفاه المسيح. لقد صمدوا ضدّ ابتزازات الحكومة التركية من جهة واستلاب قبائل البدو من جهة أخرى. إنهم ملزمون بإبقاء دورهم مفتوحة للقبائل في مزارعهم على حدود الصحراء، فلا تمرّ ليلة دون أن تمتلئ غرف الضيوف بالرعاة العرب كما تمتلئ الإسطبلات بخيولهم، ولا بد من توفير وجبة كريمة من الغذاء لكل من الإنسان والحيوان. يحصل هؤلاء الضيوف غير المرحب بهم على معظم أرباح الفلاح، ولكن إذا تمّ رفض الضيافة، فإنهم سيجعلون كل مزارعهم ومواردهم مستحيلة عن طريق الغارات والغزو الذي لا تستطيع الحكومة منعه ولا حتى الحد منه.

في قلب جلعاد توجد مستوطنة شركسية كبيرة، ومقرها الرئيسي هو رابوت عمون، وهي مدينة قديمة، مثل مدينة جرش المجاورة، لا بد من أنها كانت مقرّاً متقدماً للحضارة في بداية عصرنا التاريخي. هناك آثار لبرج المسرح الضخم إلى الأعلى من المكاتب الحكومية الحديثة، وتزين الجدران المحاذية للهيكل ضفاف الجدول، ويزيد من كل تلك الروعة، مبنى أموي جميل يتوّج قمة التل. لقد اهتم الشركس المتدبرون بزراعة الأشجار وإقامة الحدائق في أسفل الوادي، كما نصبوا ماكينة لمنشرة تدار بقوة تيار الماء في الجدول، أما عرباتهم ذات العجلتين فهي تصفر على أفضل الطرق في شرق الأردن. قد لا يكونون محبوبين من قبل جيرانهم، لكن يمكن القول دفاعاً عنهم، إن كفاحهم وتعاضدهم من أجل البقاء قد ينعكس بالنتيجة إلى تردي خصائصهم الوطنية.

في شرق جلعاد يقع البروز البركاني لمنطقة حوران، والذي يسكنه المهاجرون الدروز من لبنان، وهم جنس من الرجال الأقوياء والنساء الجميلات، يعتنقون ديانة غريبة، لا هي مسيحية ولا مسلمة، لكنها متأصلة على الأرجح في تقاليد قديمة، أقدم بكثير من التعاليم الأسطورية لسلطان مصر المجنون في القرن الحادي عشر، التي يفترض أن تكون أصل نشأتها. يمتاز دروز حوران بالبراعة والشراسة والشجاعة المتناهية، يخشاهم رجال القبائل والموظفون الأتراك. لقد نجحوا في الحفاظ على استقلالهم الفعلي من الحكم العثماني، على الرغم من شنّ الحملات العسكرية المتكررة عليهم، والتي طالما انتهت بمذابح جماعية، ومنعت سكان الجبال من توسيع حدودهم.

رحلة قصيرة لمدة يومين من جبل حوران تأخذك إلى دمشق، نبض الحياة في السياسة العربية الحديثة، العاصمة التي تجمع بين الحضارة العربية المعاصرة والصحراوية القديمة. توجد على أطرافها قبائل عنزة البدوية القوية، التي تربط بلاد ما بين النهرين بسوريا،

وتلجأ إليها بحرية كما يؤمها تجار بيروت، وهي مسار الحجاج في طريقهم إلى مكة، وقبله السياح. كان ذلك قبل الحرب، تماماً كما كانت الحال في القرن السابع عندما أقام الأمويون دولتهم هناك، المدينة الرائدة للشعوب العربية، على الرغم من أن الثروة الطبيعية الهائلة لبلاد ما بين النهرين قد ترفع بغداد مرة أخرى، كما نشأت في العصور الوسطى، إلى موقع يتجاوز حتى دمشق. أكتب عنها كما عرفتُها خلال خمسة عشر عاماً من الاطلاع والمعرفة، المدينة الكريمة والمضيافة، الغنية بالفاكهة والزهور والمياه الجارية، جنة على الأرض كما اعتاد سكانها على القول.

إن أعظم المزايا الطبيعية التي تتمتع بها هي قربها من الجبال. لا تبعد الثلوج المتساقطة في حرمون أكثر من رحلة يوم واحد، كما توفر القرى في جبال لبنان الشرقية ملاذات صيفية لا تقل متعة، وأكثر وحدانية، عن المناطق السياحية الحديثة في لبنان، التي غزت إلى حد ما، بلاد الشام في بيروت وكذلك في الإسكندرية. لكن لبنان أيضاً له سحره، وقراه المارونية التي تطفو في منتصف الطريق بين البحر والسماء، المكسوة بالكروم والشجيرات المنحدرة مع مجاري المياه المتدفقة من الصخور، وأشهرها نبع أفقا، الذي ما زال يتدفق باللون الأحمر كأنه دم أدونيس.

لعل من الصعب الآن تذكر أوقات السلام والجمال في تلك السلسلة الجبلية، التي تهدل أطرافها على زرقة البحر الأبيض المتوسط. لقد عانت حكم جمال باشا أكثر من أي جزء آخر من سوريا، حيث قُطعت أشجار الزيتون والفاكهة لتزويد السكك الحديدية بالوقود، وحُرم الفلاحون جميع الموارد بفعل الطوق الصارم، وماتوا من الجوع أو هاموا متضورين جوعاً إلى بيروت ليموتوا هناك. وتنتشر القصاص الرهيبة عن بيع الأطفال من قبل ذويهم، والزوجات من قبل أزواجهن، بسعر كيس الطحين.

إن هذا النقص المروع في الغذاء، لا بد من أن يعود جزئياً إلى الإجراءات التعسفية التي اتخذتها السلطات التركية والألمانية لتجويع الشعب العربي، والتي تصبح أكثر وضوحاً في ذكريات المرء عند الاتجاه شمالاً. إن وادي نهر العاصي، وهو حقل كبير لزراعة القمح، إضافة إلى الأراضي السهلية الواسعة لزراعة القمح في شرق حلب، يمكنها أن تزود العديد من الجيوش، وتكفي كذلك وزيادة لجميع السكان لو تم توزيع الحصاد بشكل عادل. حمص وحماه هما عاصمتا هذه المنطقة، وكلاهما مدينتان من العصور التاريخية القديمة، وتسبقهما في القدم، مدينة قادش الحثية الواقعة على نهر العاصي، وهي ما زالت على شكل تل ضخم مع عدد قليل من الأكواخ للعرب على القمة المطلة على بحيرة قطينة. ومثل كل البلدات السورية، فإن لحمص وحماه لوناً وميزة خاصة وكتاهما تشاركان في الخيرات بشكل عام، ولهما جو من الحبور والازدهار الذي كان سائداً في سوريا. ومثل دمشق، فهما على اتصال وثيق بالقبائل العربية، ولا سيما قبائل عنزة الشمالية الذين يرعون ماشيتهم في الصيف، بالقرب من حقول الحصاد، الأمر الذي قد يصاحبه بعض الاضطرابات الصغيرة التي تحدث سنوياً عندما يجتاح البدو المناطق السكنية. وقد اعتاد أبناء المدن

السوريون منذ فترة طويلة هذه الأحداث، وأصبحوا لا يلاحظونها إلا نادراً، ربما باستثناء هزّ الكتفين وبعض الملاحظات العابرة في نعت البدو المتوحشين. قد يكون هناك فرق شاسع بين مظهر رجل من البدو، في ثوبه الممّرّق وعباءته السوداء، والذي تفوح منه رائحة الجمال ونار المخيم، وشعره الذي يتدلّى في صفائر على الكتفين، وبين مالك الأرض في المدينة، الأنيق بالملابس الأوروبية؛ دعنا نقول إنه من حماه، لكن المدهش حقاً هو مدى سهولة انقلاب الأمر. في جيل واحد يمكن أن يتحوّل الرجل البدوي إلى مواطن متكامل كأبي رجل في العالم. كنت أعرف رجلاً وُلِد في خيام قبيلة صغيرة وضيعة حافظت على وجودها بطريقة محفوفة بالمخاطر، من خلال عملها بشكل رئيسي في السطو على طرق التجارة والمسافرين، في حزام الحمم البركانية جنوب دمشق. كان والده شيخاً، وله سلطة مطلقة على الجميع، اللصوص والماعز والأماكن، ولكن نظراً لامتلاكه بعضاً من الذهن الوقاد، فقد أراد أن يرى أطفاله يتعلّمون القراءة والكتابة. وتحقيقاً لهذه الغاية، قام بتوظيف مدرس، رجل مسيحي، للقيام بمهمة التدريس في خيمة مجاورة. لكن هذه المدرسة انتهت بشكل مفاجئ بسبب غارة شنتها إحدى القبائل القريبة، الأمر الذي أخاف مدير المدرسة التعيس لدرجة أنه هرب على عجل ورفض العودة. بعد عام أو عامين، صادف الشيخ أن يكون في دمشق مع ابنه الأكبر. كان ذلك حين أعلن السلطان عبد الحميد تأسيس مدرسة لأبناء العشائر والمشايخ في الآستانة بهدف تعليمهم وتدريبهم صغاراً وتحويلهم إلى عثمانيين حقيقيين. تمّ اختيار ستة أولاد من سوريا، وتمّ الضغط على شيخ السلط للمساهمة بأحد أبنائه. امتثل الشيخ وتوجه صديقي إلى الآستانة. قاطعت حديثه متسائلة: «ألم تتفاجأ عندما رأيت تلك المدينة؟» قال: «اندهشت!»، وتابع: «أصبت بالحيرة عندما قادتنني قدامي عائداً إلى دمشق». لقد واصل تعليمه واكتسب علماً كبيراً لنفسه، ولكن دون أن يتحقق الهدف والغرض الأصلي للسلطان. لم يتحول أبناء الشيوخ إلى عثمانيين، على الرغم من كل الجهود الحثيثة التي بُذلت من أجل إظهار مجد الأتراك لهم وجعلهم ينسون عرقهم ولغتهم. لقد أصبحوا، على العكس من ذلك، أكثر إحساساً بعروبيتهم من ذي قبل واكتسبوا فهماً أفضل لحياتهم، حيث تعرّف الأطفال من مختلف القبائل على بعضهم البعض، وأدركوا ما يجب أن يكون عليه العرب. حصل صديقي من تلك المعرفة والاطلاع على فائدة كبيرة، عندما جاء اليوم الذي وجد نفسه مضطراً للفرار حفاظاً على حياته، وارتقى صحراء بلاد ما بين النهرين بأكملها من الشمال إلى الجنوب، ليجد الأمان معنا في البصرة. كان قد أصبح له زميل في المدرسة من كل تحالف قبلي مهم، كان يحتجّه للضيافة وهو في طريقه إلينا. قلت له بعد الاستماع إلى هذا التاريخ الجميل: «هل سبق لك أن عدت إلى خيام السلط؟» قال: «لقد عدت»، لكنهم يعتبرونني غريباً، وأنا أنظر إليهم على أنهم مجموعة من اللصوص» (9).

في أقصى الشمال من المدن السورية الأربع الكبرى -بالنسبة لي لا أعتبر بيروت، ولا القدس مدناً سورية حقاً- تقع حلب على أطراف الشعوب الناطقة باللغة التركية. إن موقعها وعلاقتها الطويلة والحميمة بالعالم الخارجي التي تتمتع بها باعتبارها مركزاً تجارياً شهيراً، قد أعطت صبغة خاصة لعقلية مواطنيها، تولدت لهم روح السخرية من الألفة مع العالم، أو

على الأقل مع العالم الشرقي، ونوع من اللامبالاة، مقترنة بنشاط فردي كبير، ومن انفتاح اجتماعي مبهج. لا أستطيع أن أتخيل أي إصلاح ديني أو اجتماعي مهم يمكن أن ينشأ في حلب، كما لا يمكن تغييب المجتمع الحلبي كثيراً بحماس طائش. التحريض على المذابح، على سبيل المثال، تم استقباله بتفاجئ مهذب، حتى عندما تمت إبادة الأرمن، كما حدث عام ١٩١١، في قرى ليست أكثر من رحلة يوم واحد إلى الغرب.

اسمحو لي أن أنهي حديثي بتقديم آخر وصف لحلب تلقيته مؤخراً من لاجئ، لأنه يلخص سوريا في عهد جمال. قال: «لا يمكنك المرور في البلدة دون انقباض القلب. في كل بيت هناك نواح وعويل والشوارع مليئة بتلك الأصوات».

الولايات التركية: الجبال الكردية

إن الولايات العربية، على الرغم من أنها قد تظهر تنوعاً في العادات والمعتقدات، لكنها بشكل عام متجانسة، ليست في العرق فقط، وإنما تسير على الأرجح، إذا سُمح لها بمواصلة مسارها الطبيعي، نحو وحدة أكبر في الهدف والمصلحة، والتي تمتلكها في الوقت الحاضر. فمن سواحل البحر الأبيض المتوسط إلى ما يقارب مسيرة يومين عن الحدود الفارسية، يتم التحدّث بلغة واحدة، وإذا كانت التجمعات المسيحية قد اعتادت على اعتبار نفسها مسيحية بدلاً من أن تكون عربية، فلا بد من الاعتراف بأنه لم يكن هناك فائدة تذكر لهم في اشتراكهم في قومية لم يكن لها أية سلطة سياسية، أو تدعيها فقط في رد فعل على قوة أكثر تشككاً في التطلعات المسيحية، ومعادية لأي افتراض بالمساواة أكثر مما يظهر العرب أنفسهم. لكن إذا كنت عربياً فهذا يعني ضمناً الانتماء إلى عرق مهيمن، وسيكون من مصلحة جميع سكان الأقاليم العربية المطالبة بنصيبهم فيها. بذلك سيكون هناك تقدير لأصولهم المشتركة، وكذلك ستسهل لغتهم المشتركة الاستيعاب الكامل.

بينما يسود التناقض الكامل لهذه المزايما فيما أسميه العنصر العام في المقاطعات التركية، قد يشكل العنصر الطوراني أغلبية بسيطة من السكان في كامل آسيا الصغرى، إذا كان هناك أي أغلبية في الحقيقة، بينما تفوق القوميات الأخرى في العديد من المناطق على أعدادهم. إن اللغة التركية هي اللغة الرسمية بالتأكيد وهي مألوفة في كل مكان، لكن الناس يتحدّثون فيما بينهم لغاتهم الخاصة ويتمسكون بها. في لغة السياسة، هذا التنوع معترف به، وعندما نتحدث عن آسيا الصغرى، لا نتحدث عنها على أنها تركية واضحة ونقية، لكننا نعتبرها في أجزاء مختلفة مثل أرمينيا (على الرغم من أن اللورد سالزبوري أقرّ بأنه لا يستطيع إعطاء تعريف جغرافي دقيق للمصطلح) أو كردستان. قد يكون هناك اعتراض على أن بريطانيا العظمى، هي مركبة بالمثل وفي ذات الوقت تعتبر كتلة موحدة، وهنا أودّ أن أجيب عن ذلك، بأنه فقط في الشق الأول المذكور، يكون الأمر موازياً صحيحاً. فالتنوع

موجود في آسيا الصغرى كما في بريطانيا العظمى، ولكن في آسيا الصغرى ليس هناك وحدة.

لا يوجد مكان تتجلى فيه الفوضى السياسية والعرقية أكثر من كردستان. كما قلت، فإن السلاسل الجبلية الوعرة والتي يتعذر الوصول إليها حتى يومنا هذا في جنوب و جنوب شرق الأناضول كانت ملاذاً للهاربين من المناطق السهلية، حيث طردتهم الغزوات المتكررة. هكذا طرد الميديون الآشوريين، واقتلعت الهجرات العربية، التي بدأت قبل الفتح الإسلامي ولا يمكن القول إنها توقفت تماماً في أي تاريخ، من جديد الميديين والبارثيين والمستوطنين الساميين الأقدمين. علاوة على ذلك، سكنت الجبال منذ أقدم العصور التاريخية بقايا أعراق مختلفة. وجد هناك القدماء الإغريق والكاردوخي من الأكراد؛ وتعود المملكة الأرمنية إلى القرن السادس قبل الميلاد، وقبلها نعرف بشكل ضئيل الوحدات السياسية التي تقف في علاقات وثيقة مع الحيثيين، والتي لا يمكن تحديدها بالتأكيد إلى أي قسم من البشرية ينتمون. لقد تداخل هؤلاء الناس، لكنهم لم يندمجوا. فجزء كبير من كردستان، من وجهة نظر مختلفة، هي أرمينيا - وهي حقيقة تذهب إلى حد بعيد لتبرير عدم معرفة اللورد سالزبوري - وعندما يتم أخذ جميع الظروف التاريخية في الاعتبار، فليس من المستغرب أن نجد في أجزاء قليلة من الأناضول التي يوجد فيها عدد كبير من السكان، من لا يتحدثون أكثر من لغة واحدة، بينما في المرتفعات الجنوبية، يتحدث الرجال في الوقت الحاضر ثلاث أو حتى أربع لغات. وهكذا في الوديان البرية، شمال الزاب الكبير، من المنطقة الشرقية الرئيسة لنهر دجلة فوق الموصل، قابلت قرويين يتحدثون الكردية والعربية والتركية، لكن حين يتحدثون مع بعضهم البعض يستعملون لهجة سامية تعرف بالفلاحي، وهي لغة قروية، وعلى الرغم من اسمها المهين، على ما أعتقد، فهي ليست سوى بقايا مفككة من اللغة الآشورية القديمة. وفي طور عابدين، شرقي ماردين، فإن اللغة الأم للمسيحيين هي السريانية، لكنهم يتحدثونها إلى جانب الكردية والعربية وعادة ما يكون لديهم القليل من التركية. فيجب علينا مراعاة هذه الميزات في أي محاولة لفهم التضامن السياسي في الولايات التركية.

لقد استبعدت حتى الآن الشركس، الذين جاؤوا حديثاً وهم قليلون نسبياً من حيث العدد. ومع ذلك، أينما نجح هؤلاء المهاجرون من القوقاز في إثبات وجودهم، فقد أدخلوا عنصراً عرقياً مختلفاً تماماً وقوياً للغاية، وقد ترك بصماته. في الواقع، كان يجب عليه أن يكون نشطاً قوياً من أجل الحفاظ على وجوده في مواجهة الصعاب التي واجهته. وأشهر مستوطناتهم التي عرفتها هي مستوطنة رأس العين، التي كانت حتى وقت قريب المحطة النهائية لقسم حلب - الموصل من سكة حديد بغداد. وجدت هناك زعيم القرية، الذي كان مستعداً دائماً لتقديم الشاي لضيوفه باستخدام السماور الروسي. لقد روى لي تجاربه التي قد (يمكنني أن أؤكد) مقبوليتها على أنها تمثل نموذجاً لتاريخ المهاجرين الشركس بشكل عام. لقد كان رجلاً تجاوز السبعين من عمره - كان هذا في عام ١٩١١ ولعله، رحمه الله، قد أنهى منذ مدة مسيرته الحافلة بالأحداث. كان قد جاء وهو طفل إلى حدود الصحراء.

يمكنك تصور رحلة الخروج من القوقاز - عائلات بأكملها مع الماشية والسلع الحياتية التي يتم تحميلها مكدسة على العربات ذات العجلتين، مع جلوس الأطفال فوق كل شيء. كان السلطان قد خصص لهم أراضي حول أحد المنابع الكبيرة، التي هي أحد مصادر نهر البليخ، ولكنهم عندما وصلوا إلى وجهتهم وجدوا أن سلطة السلطان في منح هذه الأراضي أمر مشكوك فيه، ولم يكن حتى في وضع يسمح له بأي نوع من المساعدة. كان عليهم مواجهة وتحدي مطالب المنافسين من الأكراد والعرب، في صراع وجهاً لوجه، ويبدأ بيد. وبعدما هدأت المجابهة واستقر لهم الأمر، حان لهم استبدال السلاح بالمحراث، فنالوا عن طريق العمل الشاق والكدح المضني كسب رزقهم وسد رمقهم. «إذا جاءت السكة الحديدية في طريقنا»، قال مضيبي (في ذلك الوقت لم يكن قد أعلن عن مسار السكة على الملأ)، «ستزدهر حياتنا، وإلا فإنني لا أرى أي أمل». سألته: «هل سبق لك زيارة القوقاز؟ أجاب: «نعم، ذهبت إلى هناك منذ عشر سنوات. خانم أفندي، ما كان ينبغي أن نغادر بلدنا. أولئك الذين بقوا أصبحوا رجالاً أثرياء، وهم يشغلون مناصب في الحكومة الروسية واكتسبوا أراضي وممتلكات. لو بقينا، لكنا قد أصبحنا أغنياء أيضاً». لقد سمعت الشيء نفسه من شفاه العديد من المهاجرين الشركس، ويمكن اعتبار ذلك بمثابة إدانة واضحة للحكم العثماني، كما يمكن الاستشهاد بها، لأنها تظهر أن الأتراك كانوا عاجزين عن مساعدة أولئك الذين ضحوا بكل شيء في مقابل ولائهم لهم.

هناك تجمعات من الشركس في بعض المناطق أكثر عدداً من موقع رأس العين، نجحوا في تأسيس كياناتهم. وما زالت ذاكرتي تحتفظ ببعض الانطباعات الحية التي تركتها مجموعة من قراهم في شرق مدينة قيصري. كنا نزلنا في طرق منحدرية ومسارات ربما غير مطروقة، كثيفة الأشجار، في مناظر تشبه إلى حد ما المشاهد الريفية الأوروبية، وفي حقول تمت زراعتها بعناية، طرقها معمرة، ومجاري الأنهار والترع مجسرة، منازلهم الريفية محاطة بحدائق مسيجة بشكل أنيق، والفلاحون يرتدون الملابس الجيدة ويجلسون على مقاعد عند مداخل بيوتهم عند غروب الشمس، للاسترخاء من يوم العمل.

وماذا عن أولئك الذين كانت الحكومة التركية، لا ترغب حتى في مساعدتهم؟ بعد شهر من مذابح أضنة عام ١٩٠٩، مررت عبر الوديان الفاتنة لحوض أعالي نهر الفرات. كان الوقت ربيعاً؛ وقد غطت الثلوج هناك الطريق المرتفع الذي يفصل بين منابع مياه نهر دجلة عن الفرات، بينما كان العشب قد نما في سهول خربوت ليحيط بمدينة ملاطية. هناك أقام السلطان عبد الحميد، والذي كان قد تمّ خلعه في ذلك الوقت، مزرعة كبيرة ورائعة لتربية الخيول، وسط أعجوبة من الأراضي وفيرة الخصوبة. كانت حبوب القمح تموج في السنابل، وأشجار التوت مثقلة بالفاكهة، والكروم كثيفة بعناقيد العنب الخضراء الصغيرة؛ كانت الأرض تفوح بالغرارة والجمال. لكن لم يكن الذعر قد هدأ في النفوس في القرى الأرمنية، إلا نادراً. فكانت حكايات أضنة ما زالت في كل فم؛ وحكايات أيضاً عن الهامش الضيق الذي كان يكمن بين المتحدثين أنفسهم وتلك المذبحة. وبينما كنت أتجه في رحلتي إلى الغرب، وصلت إلى أطراف مناطق الدمار، ورأيت أكواماً متفحمة من الطين والحجارة

في مناطق كانت نشطة وفعّالة في الزراعة. توقفت الكارثة في منتصف الطريق. لقد حمى السكان الفقراء والمشرّدون أنفسهم وسلّموا بكيانهم الأعزل لا غير - لفترة راحة امتدت ست سنوات، لو كنا عرفنا ذلك، حتى عام ١٩١٥، حيث تم تنفيذ العمل غير المكتمل، الذي ترك سنة ١٩٠٩.

لقد كتبت في مكان آخر عن أخلاقيات فعل المجازر، ومع أننا في خضم الأفعال البغيضة التي ما زالت تصلنا أخبارها، يمكنني أن أدلي بشهادتي. إن المذبحة في الأقاليم التركية لم تحدث أبداً من جراء فعل أو حدث داخلي. لقد جاءت الأوامر، وتمّ تنفيذها. ولكن على الرغم من أنني أعلم أن هذا صحيح، فأنا لا أدفع بذلك كذريعة. هذه الطاعة للأوامر هي في ذاتها جريمة، ومن واجب الإنسانية أن تقف للدفاع عن نفسها ضدها، أو تخسر حقها في الحياة، وكذلك ضد أي طاعة مماثلة. يجب على الإنسانية أن تدافع عن نفسها، كما يحدث الآن في حربها مع ألمانيا.

على قدر علمي، أظهر الأكراد طباعهم الشرسة في تعاملهم مع المسيحيين، بشكل يفوق تلك التي مارسها الأتراك، ربما فقط لأنهم يمتلكون في بنيتهم نشاطاً وحادّة أكبر من الفلاح التركي، الذي يُظهر المزيد من صفات الشخص الخامل والبليد. في أجزاء كردستان التي أعرفها، كان المسيحيون مرعوبين من الكرد أكثر مما كانوا يخافون الأتراك، حتى في المناطق ذات الأغلبية التركية. لقد عانى النساطرة التّيّارية، في شمال شرق الموصل، بشكل مستمر على أيدي الأكراد. وعلى الرغم من شجاعتهم المذهلة التي حالت دون تعرضهم للإبادة الكاملة، إلا أن القوى الكردية التي هاجمتهم كانت قوية جداً، وحتى قبل قيام الحرب بدا الأمر وكأنهم لا محالة سوف يخضعون في النهاية. وكذلك كانت حال الكنائس السريانية في طور عابدين؛ إذا لم يتمّ سحقها من الوجود من قبل الآغوات الأكراد، فهي على الأقل ليست بأحسن حال مما كانت. كما إن أديرتهم التي جُردت من ثرواتها وتحوّلت إلى جزء بسيط من مجدها الزاهر في العصور الوسطى، لم يكن لها أن تعلن أنها فقيرة للغاية بحيث لا يمكنها تقديم الضيافة لكل جماعة كردية من الرجال المسلحين الذين يمرّون على طريقها. وعلى الرغم من تزويدهم بالخبز اليابس والبيض والزيت والزبيب، وهو كل ما يمكنهم توفيره، رغم أن هذا يشكل ضغطاً كبيراً على مواردهم الضعيفة. قبل الحرب كان بإمكان الرهبان الاعتماد، على الأقل في إدامة حياتهم، على عزلتهم في الصوامع الحجرية التي يتعدّد الوصول إليها، والتي تعكس صورة دقيقة لتلك الظروف التي حافظت وساعدت في إسناد حياة الرهبنة في العصور الوسطى - فكان هناك إمكانية للحصول على بعض الأمل في الحصانة من أسوأ الشرور، في عالم ينعدم فيه القانون، بتقديم تلك الخدمة والضيافة التي لم يكن هناك من يستغني عنها. لكن وفقاً للتقارير الواردة الآن، فإن لم يكن ما حصل هو الأسوأ، فقد ألحق بهم على الأقل البلاء الحاسم، وتمّ محو هذه المجتمعات التاريخية الصغيرة.

حدثت أشياء مشابهة في جميع أنحاء كردستان. لقد أصبحت ماردين في فوضى وهيجان، واسودت ديار بكر المضطربة، أكثر المدن المسورة نحساً، في جحيم مستعر. وبعد تسع سنوات من حكم الاتحاد والترقي، يكاد المرء أن يقتنع، بأنه سيقال في المستقبل إن أيام السلطان عبد الحميد كانت فعلاً أيام رحمة - فقد كان هناك على الأقل قائد كردي واحد يتفاخر بنفسه، في الشفقة تجاه المسيحيين. هذا القائد القوي، إبراهيم باشا الملي، الذي هو في الأصل من العرب، بغض النظر عما كانت عليه أخطاؤه أو جرائمه، جعل البلاد من نهر الفرات إلى نصيبين ملاذاً لمعتنقي الدين المسيحي. وشهد العام الأول لوصول جمعية الاتحاد والترقي، سقوطه بيدهم. وعلى الرغم من أن أبناءه استعادوا جزءاً من سلطته بعد سجنه الطويل، إلا أنهم أصبحوا من المشتبه فيهم، وبالفعل قدم أحدهم الآن لاجئاً عندنا في بغداد.

لكن لا يجب الحكم على جميع الأكراد وبشكل مطلق من خلال علاقاتهم مع الطوائف المسيحية. فإذا كانت لديهم بعض الرذائل فإن لديهم أيضاً العديد من الفضائل المدنية الفطرية. إن النظم الاجتماعية التي اعتادوها جعلتهم معروفين بالحياة النظيفة وكذلك الشجاعة، وإن لم يكن لديهم أخطاء أقل من القوميات الأخرى في ظل الحكم التركي السيء. وعلينا أن نتذكر أنه في جميع أنحاء المناطق الآسيوية في تركيا، تكمن المشاكل الزراعية في جذور الاضطرابات القبلية، وهذا ينطبق على نصف الأكراد الرّحل كما ينطبق على المزارعين غير المستقرين في بلاد ما بين النهرين. لقد انتقلت معظم الأراضي بوسائل مشكوك فيها إلى أيدي الأثرياء من المسلمين الذين يذلون المستأجرين بالإيجارات القاسية. إن استبداد زعماء القبائل مشابه لاستبداد البارونات الإقطاعية في أوروبا الوسطى. في براري كردستان، يكون الفلاحون الأكراد عبيداً لشييوخهم والبيكات والآغوات، من أجل الحصول على قدر أكبر من الأمان في الحياة، وهم ليسوا أفضل حالاً من المسيحيين.

في شريط من آسيا الصغرى الذي وقع الآن في أيدي الروس، وهو الطريق المحوري لما يعرف بالمسار القديم الذي سلكه عشرة آلاف جندي إغريقي في طريقهم إلى البحر، يظهر السكان على طول الساحل خليطاً قوياً من اليونانيين. العديد من القرى هناك لها أسماء إسلامية، لكن سمات السكان وعاداتهم وطقوسهم تفضح أصلهم اليوناني. حول مدينة رزة، في شرق طرابزون، يعيش اللاز، وهم عرق من أصول تبتية من القوقاز، من البحارة الذين يعملون في البحر الأسود، وهم مسلمون متعصبون بشدة، متوحشون، غير متسامحين، يهرعون بسرعة نحو السكين. ويعطي المثل التركي القائل: «من الطيور الأكثر ذكاءً هي الإوزة، ومن الرجال الأسوأ هم اللاز»، صورة قاسية للمقاربة في تشبيهِهم. لكن بعيداً عن الساحل، يختفي العنصر اليوناني تقريباً ويحل مكانهم الأرمن، إذ يشكّل نفوسهم قبل الحرب في أرضروم حوالي خمسين في المئة من السكان، واحتفظوا بهذه النسبة في المناطق جنوباً حتى فان وبيتليس. أما الأتراك، من الناحية الأخرى، فيشكلون النصف الآخر للسكان في أرضروم، لكن الأكراد يحلون مكانهم نحو الجنوب. فحول مدينة بيتليس تكون أعداد الأتراك قليلة، وفي بعض القرى الكردية تكون اللغة التركية غير مفهومة.

إن الطبيعة الجبلية للأرض، والطابع غير الخصب للتربة ونقص المواصلات، جعلت هذا البلد في حالة فقر. لقد تم حرق جميع الأخشاب تقريباً منذ فترة طويلة، وفي الشتاء يرمى السكان قطعان الأغنام والماشية، لينالوا الدفء بينهم. في السابق كان يتم الحصول على بعض الأرباح من القوافل التي تمر بين طرابزون وبيتليس، ولكن انتقلت كل هذه التجارة تقريباً الآن عبر باطوم والقوقاز.

كانت المنطقة بأكملها لفترة طويلة تحت التأثير المعنوي لروسيا. وعلى مدار مائتي عام مضت، كان جدار التتار، الذي يشكل الحاجز الذي يفصلهم عن روسيا، قد بدأ يتقلص تدريجياً، وما زال الرجال الذين على قيد الحياة يتذكرون الغزو الروسي عام ١٨٧٨. وقد تجسد شعور الأتراك في عبارة: الخوف من الموسكاف. وعند رؤية الفرق بين حالة المسيحيين في مناطق القوقاز الروسية، وظروف إخوانهم في الدين داخل الحدود التركية، لا نعجب عما كان عليه شعور الأرمن في تركيا على الدوام، من عدم الشعور بالخوف تجاه الروس. لكن مع ذلك، سيكون من الخطأ الاعتقاد بأن السكان الأرمن كانوا مؤيدين بشدة لروسيا. كان هناك الكثير من دماء الشبيبة الأرمنية من الذين عملوا بطريقة غير مجدية لإثارة ثورة، من شأنها أن تلحق مثل هذه الكارثة بالأتراك، كما قام الأرمن في القوقاز الروسي بالثورة على التتار قبل خمسة عشر عاماً، لكن معظم الأرمن كانوا هادئين بما فيه الكفاية، وأرادوا فقط أن يُتركوا وشأنهم. علاوة على ذلك، كان هناك طرف أرمني قوي معادٍ للثوار بشدة، يبحث عن ازدهار وسعادة الأرمن والسلام مع الأتراك.

مقاطعة أخرى في الأناضول ربما علينا أن نتناولها هنا، وإن كانت ليست جزءاً من كردستان، لكن لأنها كانت تنتمي سابقاً إلى أرمينيا. فعندما وضع السلاجقة في القرن الثاني عشر من عصرنا حداً للسلطة الأرمنية في كردستان، أسس قريب للحاكم المقتول أني مملكة أرمينيا الصغرى في مقاطعة قلقيلية. واستمرت لما يزيد قليلاً على مائتي عام، عندما أطاح بها المماليك، لكنها تركت آثارها في أنقاض لا حصر لها من الكنائس الرائعة المبنية بالحجر الصخري، كما تركت أعداداً كبيرة من الأرمن. لقد عانى هؤلاء السكان من أعمال مروعة في مذابح عام ١٩٠٩، لكنهم نجوا من الدمار الكامل، ويرجع ذلك إلى حد كبير إلى تدخل ضابط بريطاني، كان في ذلك الوقت قنصلاً في أضنة. لكن الجميع هلكوا بعد ذلك هم ومنقذهم على حد سواء. لقد سقط هو شهيداً في معارك رأس غاليبولي، أما الأرمن في قلقيلية فتم نحرهم بالسيف بأوامر الأتراك والألمان.

يمكن أن أقص لكم، في تناقض صارخ مع ما هو طبع بريطاني والحمد لله، قصة حقيقية، سأرويها رغم أنها لم تُنشر حتى الآن. عند اندلاع المجازر الأرمنية، كان هناك فريق صغير من المهندسين الألمان يقومون بأعمال المسح للسكك الحديدية في قرية باغجه على الممر أعالي جبال طوروس. يتألف الفريق من حوالي أربعة أو خمسة رجال، وكان معهم فتاة هي ابنة رئيس المساحين. باغجه هي قرية كان يسكنها قليل من الأرمن، وكان قد احتفى عدد منهم في المنزل الخشبي الذي كان يسكنه الألمان. اجتمع الأكراد حولهم، وصرخوا بغضب

بأنهم سيحرقون الدار بالنار إذا لم يتم تسليم اللاجئين إليهم. كان من الممكن، وإن لم يكن ذلك محتملاً، أن المهاجمين ربما ينفذون التهديد، لكن الألمان لم يخاطروا أبداً. فتحوا أبوابهم وطردهم الأرمن المساكين الذين تم قتلهم أمام أعينهم. وبعد أيام قليلة هرب الألمان إلى أضنة تحت حراسة أرسلها القنصل البريطاني. ومروا عند سفح التلال قرب مدينة عثمانية، حيث حول أحد الرحالة الإنكليز، الخان الذي وجد نفسه فيه إلى مستشفى، وملاذئ للجرحى من الأرمن. رأهم وذهل من العمل الدنيء الذي قاموا به، فتذرعوا بأن وجود الفتاة معهم كان السبب لعملهم الشنيع، دع من يقبل هذا من يشاء.

من الناحية الاجتماعية تنتمي قليقية إلى سوريا أكثر من كونها تنتمي إلى آسيا الصغرى، التي تفصل بينها جغرافياً سلسلة جبال طوروس الشاهقة. وغنى الأراضي الرسوبية في أضنة ترتوي من ثلاثة أنهار كبيرة، تعرضت لويلات العديد من الحروب والجيوش الغازية، لكن تحت إدارة متحضرة سوف تتطور إلى ازدهار وانتعاش لا حدود له. فهناك سكة حديدية قديمة، بناها الفرنسيون في الأصل، تربط أضنة مع ميناء طرطوس وميناء مارسينا، وخط سكة حديد بغداد يعبر النصف الغربي من الولاية من سيليسيان غيتس إلى أمانوس. لا يوجد هناك طرق بالمعنى الحقيقي، باستثناء الطريق الذي يؤدي إلى بغداد. فقد تم بناء الجسور منذ العصور القديمة على الأنهار للعبور. وما زال يمتد على نهر كيدنوس جسر يعود إلى المملكة الأرمنية، ونهر ساروس بجسر جستين الروماني ونهر بيرميس بواسطة جسر يعود تاريخه إلى زمن الإمبراطور كونستانتوس. أما السكان فهم متنوعون بشكل محير، حتى بالنسبة لتركية الآسيوية، فضلاً عن استقبالهم في الشتاء لتدفقات من الشركس والأكراد والقبائل الطورانية من سلاسل الجبال. هناك أمل ضئيل في العيش في سلام وأمان ما لم يتم إخراج حكومة هذا البلد المشتت من أيدي العثمانيين إلى الأبد.

الولايات التركية: هضبة الأناضول

تحتل وسط آسيا الصغرى مرتفعات شاسعة، يزيد ارتفاعها عن ثلاثة آلاف قدم فوق مستوى سطح البحر، وتمتد حوالي أربعمئة ميل من أفيون قره حصار في الغرب إلى قيصري في الشرق، وثلاثمئة ميل أو أكثر من أنقرة في الشمال إلى منحدرات جبال طوروس في الجنوب. تتميز هذه المنطقة بطبيعة مميزة، تحتاج أن يكتب عنها بشكل منفصل في أي وصف لهضبة الأناضول. يغلب على سكانها إلى حد كبير رجال من العرق الطوراني. لقد كانت مركز إمبراطورية الروم السلجوقية، التي أسست في نهاية القرن التاسع مقرها في قونية، والتي تزخر بالآثار السلجوقية الرائعة. وسكانها في مناطق الأرياف هم من القبائل التركية والتركمان والبيروك شبه المترحلة، ولكن في المدن، يتواجد -أو كانت- إلى جانب العنصر التركي، مستوطنات كبيرة من الأرمن، كما توجد في القرب من قونية قرى يونانية بالكامل، على الرغم من أنه حتى وقت قريب، عندما برزت نزعة ملحوظة لإحياء اللغة

اليونانية على رعايا السلطان من اليونانيين، لم تكن هناك لغة معروفة لسكانها ذلك الحين غير اللغة التركية.

كنت قد اقتربت في رحلاتي من الهضبة من جميع اتجاهات البوصلة تقريباً، ولم يكن هناك اتجاه أكثر إثارة للإعجاب من القدوم من جهة الغرب. حيث تترك وراءك أراضي من بحيرات ومياه جارية، تلك الأراضي التي يمكن أن أصفها الآن، بأنها تبدو للأوروبيين غريبة أكثر منها شرقية. وعند عبور الممر الأخير فوق مراد داغ، أو سلطان داغ، تتحول مما هو ذلك الجو الأوروبي إلى ما هو كذلك في الواقع الجو الآسيوي. لا يمكنني أن أحدد التمييز بين القارتين سوى بالقول، إن في أوروبا وفي أراضي الساحل الغربي من بلاد الشام وإن كانت لا ترتبط بها جغرافياً، ولكن بحكم طبائعها الأوروبية، يبدو أن الطبيعة مستعدة للتكيف مع الغايات البشرية، استجابة لمتطلبات قالب حياتهم؛ بينما في آسيا يخضع الإنسان بالكامل للطبيعة، يعيش حيث يستطيع بين الجبال التي يصعب الوصول إليها، وفي الصحارى القاحلة القاسية، ويشرب من المياه الجوفية المرة، وحيث تختار التربة أن تعطي ثمارها بكثرة، أو تقسو تحت أشعة الشمس الحارقة أو يتجمد من شدة البرد القارس. تحت هذه الظروف، تعتبر هضبة الأناضول، كما كانت، هي المدخل. فلا يوجد على سطحها الواسع، لا ملجأ ولا مأوى، سوى مكان نتوء بركاني مفاجئ مثل قره داغ، وقرجه داغ، أو حسن داغ، أو جبل إيرديش قبالة مدينة قيصري، حيث يتجمع ويحتفظ بثلوج الشتاء التي تحمل على النباتات في المنحدرات، وتحتمي القرى والدور الصغيرة بين ثناياها.

إلى الشمال من الطريق الممتد من آق سراي إلى قونية توجد بحيرة مالحة تغطي أميالاً عديدة من الهضبة، والمناطق المحيطة بها أراضٍ برية قاسية للغاية، ولا تنتج شيئاً من الزرع سوى نمو ضئيل للنباتات الجارحة التي لا يمكن لأي حيوان أن يرعى عليها؛ ولكن في الغرب، حول قونية وفي جنوب كرمان، توجد آلاف الأفدنة من حقول الحبوب. عندما كنت في قونية آخر مرة، كان هناك مخطط لمشروع جلب المياه إلى السهل من بحيرة بيشهير، وكان على وشك بدء العمل وأعتقد أنه تم تنفيذه قبل اندلاع الحرب. بهذا يضمن الحصاد حتى في مواسم الجفاف ويجلب الثروة للقرى الشركسية أسفل قره داغ. هنا أيضاً، واجه الشركس صراعاً صعباً للعيش، ليس بسبب العداء المحلي، بقدر ما كان السبب هو الإهمال الحكومي والافتقار الكامل إلى الترتيبات اللازمة لاستيطانهم. لقد رأيت أعداداً كبيرة من المهاجرين -لأنهم كانوا ما زالوا يأتون من القوقاز دون توقف- وظلوا ينتظرون مدة عام أو أكثر في قونية قبل أن تخصص الأرض لهم. ونظراً لعدم وجود وسيلة للعيش، فقد اضطروا إلى ذبح الماشية التي جلبوها معهم وبيع سلعهم المنزلية، وعندما حصلوا أخيراً على بعض الأراضي الزراعية في السهل القاحل، لم يكن قد بقي لديهم، لا الحيوانات للعمل في مزارعهم ولا اللوازم البيئية من أجل تأثيث الأكواخ الطينية التي بنوها لأنفسهم. لذلك، لم يكن الأمر مفاجئاً أن نجد قراهم في حالة من البؤس الشديد.

تحت ظلال التلال توجد دائماً مزارع؛ حيث يجد اليوروك فيها مراعي لقطعانهم من الماشية ويصعد التركمان في الصيف إلى المناطق المرتفعة. تعتبر الأجنحة الشمالية الشرقية لمرتفع حسن داغ أعجوبة من الجمال والمتعة، ويشتهر جبل إيرديش بكروم العنب وأشجار الفاكهة. لقد تكيّفت هناك التربة البركانية بشكل جيد مع زراعة نباتات الكروم والأعشاب والتي يمكن أن تخوض في منافسة ناجحة مع تلك الموجودة في فيزفيوس وإيتنا الإيطالية. بالنسبة لعلماء الآثار، تحوي هذه الجبال مواقع ذات أهمية بالغة. لقد وجدت موقعاً للحيثيين على قمة قره داغ، جنباً إلى جنب مع أنقاض كنيسة صغيرة وقديمة جداً ومقبرة كانت مقدسة للمؤمنين فيما بعد، بقعة كرمها سكان الهضبة منذ بداية عصرنا التاريخي. وتتوج الكنائس والأديرة المدمرة قمة قرجه داغ كما تنتشر فوق المنحدرات المرتفعة لحسن داغ، بينما توجد في جبل إيرديش الصوامع الحجرية للنسك التي تظهر على طرق الثلوج وفوقها.

تعود الشهرة في الوقت الحاضر لسهل قونية بشكل أساسي إلى ارتباطها الوثيق بمشروع سكة حديد بغداد، لكن خط بغداد ليس الوحيد، ولم يكن الوسيلة الأولى للوصول إلى الهضبة بالسكك الحديدية. إن تاريخ خطوط السكك الحديدية الثلاثة التي تم تشييدها من الساحل إلى مناطق الهضبة الداخلية، والتي تحقق الهدف لاثنتين منهما فقط، له أهمية سياسية واقتصادية، ويستحق الأمر اهتماماً دقيقاً. إن المنفذ الطبيعي الذي تشق من خلاله منتجات الأناضول طريقها إلى الأسواق الأوروبية ليس الآستانة بل ميناء أزمير، وبدأ بناء الخطوط الأولى إلى الداخل من ذلك الميناء. فهناك سكة حديد أزمير - قصبه، التي تديرها شركة فرنسية (وقد كانت في الأصل مشروعاً بريطانياً)، ثم تتبع الخط إلى وادي هيرموس وتمتد إلى أفيون قره حصار، بينما كان خط أيدين، عند اندلاع الحرب في أيدي البريطانيين، وتم بناؤه على طول وادي مايندر الأكثر غنى. هذا الأخير هو الأفضل مالياً والأكثر ربحاً من أي من خطوط السكك الحديدية في الأناضول، باستثناء ما يمتد من حيدر باشا (10) إلى أنقرة. نظراً لأنه كان منذ البداية غير مدعوم تماماً بالضمان الكيلومتر (11)، فمن الضروري اعتماد تدابير تضمن نجاحه وفقاً لمبادئ العمل الطبيعية. وبناءً عليه، لم يتم تنفيذه بسرعة من قاعدته إلى نقطة بعيدة في الداخل، ولكن سمح له بالتطور ببطء، حيث يشق كل قسم طريقه مع تقدمه عن طريق خطوط فرعية قصيرة تستغل الأراضي الخصبة على كلا الجانبين. كانت هناك دائماً نية لمد الخط في نهاية المطاف إلى قونية، وإذا تم ذلك، فقد انتهى الأمر بأن تصبح من الناحية التجارية أكثر خطوط السكك الحديدية ازدهاراً في تركيا، ولكن بينما انتهت السكك الحديدية في ديناير، شرق أيدين، فكان مشروع سكة حديد بغداد، وهو بشكل أساسي مشروع استراتيجي أكثر منه اقتصادي، قد اتخذ شكل وتأثير الشركة الألمانية، من الواضح لعرقلة منافس له خطير للغاية. حصلت الشركة البريطانية، بصعوبة كبيرة، على امتياز لتمديد الخط من ديناير إلى بحيرة إيرديش، وكان قد تم الانتهاء من هذا الجزء قبل الحرب، ولكن ما إذا كان الألمان سيسمحون بربط إيرديش مع قونية، الأمر الذي كان من الواضح أنه سيكون مفيداً جداً للبلاد وربما يسهل إرسال منتجات الداخل إلى أزمير بدلاً من الآستانة، هو السؤال الذي لا

نريد أن نخاطر لإيجاد حل له الآن. خط أزمير - قسبة، الذي لم يتم تطويره بحكمة تماماً كما تم في خط أيدين، ولم يكن قادراً على الاستغناء عن الضمان الكيلومتری، قد وصل إلى الهضبة في أفيون قبل اكتمال عقد امتياز بغداد للسكك الحديدية للألمان. مع ذلك، تم منعهم فعلياً من أن يكون الجزء الطبيعي لامتداد هذا الخط، كما ينبغي أن يكون، منفذاً من الهضبة إلى البحر الأبيض المتوسط، ولسبب واضح هو لمنعهم من الانضمام إلى خط الآستانة - قونية. فأصبحت هناك فجوة لبضع مئات من الياردات بين المحطتين الفرنسية والألمانية، مما يستلزم تقسيم المواد الضخمة لجميع البضائع القادمة من الجنوب، وهذا أدى إلى حد كبير في ردع المصدرين عن إرسال بضائعهم (وهي الحبوب بشكل أساسي) إلى أزمير، كما كانوا يفضلون عادة أن يفعلوا لو كانت وسائل النقل عادلة؛ ومن ناحيتي، لم أقم بالمرور عبر أفيون، أبداً، دون التفكير في الجريمة الاقتصادية التي ارتكبتها أصحاب الامتياز الألمان في منع التجارة من أن تسلك الطرق إلى أسواق أوروبا.

امتياز سكة حديد بغداد، كما يعلم الجميع، حصل عليه الإمبراطور الألماني فيلهلم شخصياً عندما زار الآستانة في عام ١٨٩٨. لقد كان ذلك مقايضة، مقابل الإعراب عن نيته في دعم السلطان عبد الحميد بقوة، حين كان السلطان آنذاك قد فقد التقدير من قبل العالم المسيحي إلى حد ما، بسبب الدور الكبير الذي لعبه خلال أحداث ١٨٩٦-١٨٩٧، في حث رعاياه المسلمين في القضاء على الأرمن الذين كانوا تحت حكمه. شكل الامتياز الجديد امتداداً هائلاً لخط سكة حديد ثانية تعمل بشكل فاعل في ربط هضبة الأناضول بالساحل، والذي عرف بخط حيدر باشا.

من بداية متواضعة -نمت سكة الحديد المحلية التي أنشئت من قبل شركة بريطانية في ربط الآستانة، أو بالأحرى حيدر باشا، مع أزميت- ثم أصبح هذا الخط وسيلة اتصال مهمة، تصل إلى إسكيشهير وأنقرة. بعد منح امتياز سكة حديد بغداد، فقدت هذه السكة طابعها البريطاني وتحولت إلى مشروع ألماني بالكامل. فقامت باستغلال الأراضي الزراعية الغنية جنوب بحر مرمرة، وأصبح بإمكان خط واحد بدون مغذيات فرعية أن يحقق هذا الغرض، كما خدمت منطقة خصبة للغاية من إسكيشهير إلى أنقرة. قبل اندلاع الحرب، تم الاستغناء عن الضمان الكيلومتری الذي كان مخصصاً لها في الأصل. وأصبح الموقف مختلفاً تماماً فيما يتعلق بالامتداد إلى قونية ثم إلى طوروس الذي اكتمل فعلياً في عام ١٩٠٦. بدون مشروع الري في بيشهير، لم يكن هناك احتمال أن يكون هذا القسم قادراً على تحمل كلفة نفقاته، وحتى لو كان هذا المخطط قد تم تنفيذه، لكان من المحتمل أن تنقضي سنوات عديدة قبل أن يتوقف خط قونية عن فرض رسوم على دافعي الضرائب العثمانيين. لكن بما أن الخطين من أزمير كانا كما أوضحنا قد تم إيقافهما بسبب الغيرة الألمانية، فقد كان من المستحيل تطوير سهل قونية إلا من خلال خط حيدر باشا، وحتى لو كان خط سكة حديد بغداد بضماناته المالية غير المسبوقة، يشكّل حملاً كبيراً على الموارد الهزيلة للخزانة التركية، لا يمكن أن يكون هناك شك في أنها أفادت الأجزاء الغربية من الهضبة. لذلك، حتى سفوح جبل طوروس، يمكن اعتبارها إلى حد ما مشروعاً تجارياً، لكن استمرارها بعبور

طوروس لم يكن له علاقة بالاقتصاد. فالموانئ على بحر مرمرة لا تعمل على جذب منتجات قلقيلية وشمال سوريا وشمال بلاد ما بين النهرين، فهذه لها منافذها الطبيعية في مرسينا والإسكندرونة. وعلى الرغم من أنه يمكن قول الكثير للفائدة من فتح حقول الحبوب المنتشرة في شرق حلب، فضلاً عن تلك التي تقع على الجانب الآخر من نهر الفرات، وجعلها مناطق يمكن الوصول إليها عن طريق السكك الحديدية من الإسكندرونة، كانت هذه في الواقع فكرة متأخرة وليست جزءاً من التصميم الأصلي. لكن العمل بهذه الكلفة العالية في حفر نفق طوروس وأمانوس لم يكن ولا يمكن أن يكون القيام به لأي دوافع اقتصادية. تماشت فكرة ربط بغداد مع الأستانة مع سياسة الإدارة المركزية للسلطان عبد الحميد، والتي تمثل في بلد مثل تركيا فكرة خطيرة يصعب التكيف معها. وبعد سقوط عبد الحميد، عندما سقط التكتل البائس الذي كان يُعرف بالإمبراطورية العثمانية في أيدي مجموعة من السياسيين، الذين كانوا ميالين بشكل أكثر جنوناً منه، إلى سحب كل السلطات لشبكة حبال السياسة التركية في الأستانة، فأصبح إكمال خط سكة حديد بغداد أشد حماساً وشغفاً بالنسبة لهم. إن بناء تركيا القوية في نظر جمعية الاتحاد والترقي، يجب أن يتم باستخدام القوة والشدة في إخضاع جميع أمراء الأقليات والإثنيات، بدلاً من محاولة ترضية تلك الشعوب والمكونات الخاضعة للباب العالي، من خلال الإدارة الليبرالية الحكيمة والنظر في مظالمهم، فاعتمدت الإبادة السياسية في إسكات كل من يغامر في الشكوى من الظلم. فكان من الأشياء الأساسية الأولى هو ربط الإمبراطورية بواسطة سكك حديدية استراتيجية للسماح بمرور القوات بسرعة من نقطة إلى أخرى. ولم تكن هذه السياسة المركزية المحورية أقل انسجاماً مع الطموحات الألمانية. حيث بدت تركيا هي الأمل بتحقيق الحلم الطويل بالمكان تحت الشمس، وأصبح الشعار السياسي، برلين إلى بغداد، الذي قد يضمن الفوز بالانتخابات، إذا كان الحكام الألمان يعتمدون على رغبات جمهور الناخبين، ومنحت الآمال التي أثرت تألقاً إضافياً يعطي انعكاساً على أن النجاح يتضمن الإطاحة بالنفوذ البريطاني والمشاريع البريطانية، وإنشاء مركز ثقل موازن في غرب آسيا يهدد الهيمنة البريطانية في الهند ومصر. لذلك ليس لدي أي ظلال من الشك في أنه لولا اندلاع الحرب في عام ١٩١٤، لكانت هذه الأهداف قد تحققت، ولولا نمو قوة السلاف المؤثرة في البلقان التي تدخلت بشكل محكم، إن لم يكن كياناً معادياً فعلياً بين أوروبا الوسطى والأستانة. كان هذا الخطر، الخطر الذي ظهر في حرب البلقان في الفترة من ١٩١٢ إلى ١٩١٣، الأمر الذي عجل في اتخاذ القرار الذي لطالما اعتبرته ألمانيا أمراً لا مفر منه.

من مراجعة مختصرة لتاريخ إنشاء السكك الحديدية في تركيا، يمكن ملاحظة عنصر رئيسي بارز يرشدنا نحو المستقبل. إن الخط الرئيسي الطويل والواضح، الذي يربط بين الولايات التي ليس لها ارتباطات اقتصادية مهمة، وله العديد من العيوب الخطيرة. كما يتضمن دفع ضريبة كيلومترية باهظة، وهي رسوم ستقع على دافعي الضرائب، الذين لا يجنون منها ربحاً متناسباً، فقط من أجل أن تعطي انطباعاً فارغاً عن الوحدة والارتباط بين شعوب البلاد، في الوقت الذي لا يبدو فيه، أنها مهياة بعد لأي نوع من التماسك الوثيق، هذا

ناهيك عن القول بالإدارة المركزية، وكذلك الكلام العبثي لرجال دولة غير مؤهلين، من المحليين والأجانب.

وبدا من الأسلم من الناحية السياسية وكذلك الاقتصادية اتباع المبادئ التي سارت عليها الشركات المنفذة لخط سكة أيدين. فالاقتداء بتجربتهم، ستعطي نتائج أفضل في تطوير السكك الحديدية في عموم الولايات الآسيوية التركية، من خلال تنفيذ المشروع في أقسام، مما يسمح لمختلف الموانئ، سواء على الخليج العربي أم على البحر الأبيض المتوسط أم البحر الأسود، أن توفر لهم طرق الاستشعار، عن الحاجة في تلك المناطق التي يعملون عليها؛ ومن ثم السماح بالتمديد لأن يتم جنباً إلى جنب مع التقدم الصناعي والزراعي الذي سيوفر كل ميل إضافي من السكك الحديدية مع إمكانية تحقيق ميزانية مرضية.

على الرغم من أن المنتجات الزراعية من الأقاليم التركية والعربية ستظل بلا شك ذات أهمية قصوى، إلا أنه لن يمرّ وقت طويل، إذا كانت الظروف مواتية، قبل أن يبدأ تطوير الموارد المعدنية في لعب دور، ولا سيّما في الولايات التركية. فالثروة المعدنية في الأناضول كبيرة جداً. ونادراً ما تمّ استغلالها لحدّ الآن، وحتى لو كان قد تمّ استغلالها على أية حال، فإن الطرق المستخدمة غير كافية بشكل ملفت ومثير للسخرية. في ذهني، مناجم النحاس القيمة في أرغانة، في الجبال الواقعة بين خربوت وديار بكر، حيث يتمّ بعد عملية الصهر الرديئة، سكب المعدن في قوالب دائرية وتكون الأقراص الناتجة، زوجاً لكل حمل للإبل، تحملها قوافل لا نهاية لها بطيئة السير فوق التلال - وهي بالتأكيد أكثر الوسائل غير المفضلة للوصول إلى منطقة التعدين (إذا جاز لي أن أطلق الاسم على وادي أرغانة الموحش) والذي قد تكون محظوظاً برؤيته. هناك أيضاً الملح الصخري في قيصري، والرصاص الوفير لكيبان نادان، والفحم والحديد والزنق المعروف وجودها في مرتفعات الأناضول، وتلك الرواسب الملحية الهائلة في السهول تنتظر رأس المال ووسائل النقل لاستغلالها بنجاح.

على الرغم من أنني بدأت حديثي بالقول إن هضبة الأناضول منطقة منفصلة، استدرجت في وصفها إلى نقاط تتعلق بالإمبراطورية العثمانية ككل، لكن هذا المنحى ليس مخالفاً للمنطق. فالهضبة هي قلب تركيا. وعبرها من الشرق إلى الغرب تكمن الطرق العظيمة التي ربطت منذ زمن بعيد، ساحل البحر الأبيض المتوسط بداخل آسيا، ومن الشمال إلى الجنوب الممرات القليلة والصعبة التي كانت دوماً طرق الجيوش وليس طرق التجارة. ومن أهم هذه الطرق الأخيرة، بل الطريق الوحيد بين الشمال والجنوب ذو الأهمية التاريخية، هو الطريق الذي يعبر طوروس من خلال بوابات كيليسيان، وهو الطريق الذي اتبعته سكة حديد بغداد التي أصبحت نذير شؤم للإمبراطورية العثمانية. وهذا الطريق (حيث إن السكة الحديدية لم تكتمل بعد) يخدم اليوم، كما كان يخدم في الماضي، ليس الأغراض الحياتية الصالحة لأغراض السلام بل الدوافع الشريرة والمدمرة للحرب.

الولايات التركية: ساحل الأناضول

في جلسة تأمل استدعيت في ذاكرتي الأراضي الساحلية في آسيا الصغرى؛ إن سحر تلك الشواطئ النابضة والوديان الوديعه الرائعة تسمو كأنها تفوق الواقع. فالحرارة اللاهبة والرياح الحارقة لشهر تمّوز (يوليو) في بلاد ما بين النهرين، والغبار الذي يغلف الحياة ويدعوها قبل وقتها لتختلط مع عناصر تكوينها المطلق، يعزز الجمال الذي يتذكره المرء؛ لكن لا نحتاج إلى مثل هذه المقارنة الحادة والقاسية، فأراضي الساحل لا تمتع الرؤية المادية فحسب، بل إنها ترقى إلى الخيال بإشاعة الأسطورة وصدى التاريخ. ذلك التاريخ العريق وتلك الأساطير اليونانية الخالدة على حدّ سواء، أو لنقل إنها جاء إلينا من خلال التفسير اليوناني، لأن اليونانيين انتشروا هنا في هذه الأراضي بقدر واسع وطوّروا حضارتها الأخيرة. وتنافست مستوطنات شهيرة مثل ميليتس وأفسس مع أثينا وسبارتا في أوج عطائهم، وبعد أن توقفت اليونان الأوروبية عن لعب دور مهيمن، استمرت اليونان الآسيوية في تشكيل حياة وفكر البشرية. نقلت آسيا الصغرى إلى دولة روما المبتدئة، حصتها من التصوف، بالإضافة إلى روحية الديانات الشرقية نصف الهيلينية، وفي الفنون التشكيلية أوضحت المشاعر الإنسانية كما لم يتمّ تصويرها من قبل بالعاطفة المثالية لمدرسة بيرغامون.

إن أراضي آسيا الصغرى مليئة بالمدن اليونانية القديمة، وما زالت آثارها الرائعة منتشرة. لقد بينت بعض مساهماتهم الخالدة في التاريخ والفن، بعثات الحفريات النمساوية، وبشكل أكثر شمولاً، حفريات البعثات الألمانية. ولا بدّ هنا من التكريم حيث يكون ذلك مستحقاً: لنمنح إذن التشريف للألمان في أعمالهم في مغنيسيا. وكذلك في برييني (أجمل مدن التنقيب)، وميليتس، وديديموس وبييرغامون، وللنمساويين في أفسس. وما زالت هناك مواقع هلنستية أخرى بعيدة عن الأنظار مختفية بين «أغصان الغابات والأعشاب المسحوقة». لذلك تظّل أفروديسياس، وساغالاسوس على قمة التلال، ومجموعة من حقول الآثار نصف مدفونة بجانب البحر، وحين تمرّ ركباً عبر التلال المكتظة بالأشجار، ستصطدم بشكل غير متوقّع بالأعمدة البيضاء للمعابد، مثل أعمدة يوروموس بالقرب من ميلاس، الساقطة كالرماح الواحد بعد الآخر في غياهب النسيان. حتى الهواء مليء بالأساطير اليونانية. أيون يصرخ عبر غابات بيثينيان أوليمبوس، ويقبع إنديميون في نوم شبيه بالموت في لوتاموس، ومارسياس معلق من الفريجيان الثلاث، ليسترد انتصاره على أبولو. انظر أين شئت، وسترى كلّ أساطير الأناضول مشوبة بالحزن الآسيوي، حيث وُلدت في آسيا ومنحها العقل اليوناني الكمال في شكلها المأساوي.

لو ابتعدنا عن شبح الحضارات الماضية ونظرنا إلى البلد كما يعيش فيه السكان الآن، فإنّ العنصر الإغريقي في المناطق الساحلية ما زال يلعب دوراً مهماً. يقدر عدد سكان آسيا الصغرى الكلي بحوالي تسعة ملايين نسمة، ويكوّن اليونانيون مليوناً منهم. لكن نظراً لأنهم

يتركزون بشكل أساسي في الموانئ أو في أماكن ليست بعيدة عنها، فيظهر حجمهم الكبير في هذه المناطق الساحلية. فأكثر من نصف سكان أزمير، على سبيل المثال، هم يونانيون. ولهم السيطرة على التجارة الداخلية، على الرغم من المنافسة النشطة والناجحة بشكل متزايد ضدهم من قبل الأرمن. كما إنهم ينتشرون في أقصى الشرق حتى إيرديش، فهم يشكّلون العنصر الأساسي من طبقة التجار في تلك المدن. إن لهم شهرة لمهنة أخرى وإن كانت أقل جدارة، هي اللصوصية في قطع الطرق، والتي كانت منتشرة حول أزمير وفي السلاسل الجبلية التي تفصل بين نهر هيرموس ووادي ماسندر والتي طالما تُنسب إلى العصابات اليونانية. كان لبعض من هؤلاء القادة شهرة محلية يمكن مقارنتها بشهرة روبن هود أو ديك توربين في بريطانيا. كان هناك شخص يسمى شكيرجي في العقد الماضي، كان قد أُرهب البلاد بأكملها ونفحها بمخزون لا نهاية له من الحكايات الرومانسية. لكن في النهاية، نجحت شرطة الدرك التركية في محاصرته -كان هذا، إذا كنت أتذكر جيداً في عام ١٩١٣- وحصلوا على جثة مقطوعة الرأس تمّ تحديدها على أنها من جسده. يذكر البعض من رجاله أنه قتل نفسه بيده بدلاً من أن يتعرض للقبض عليه، وأن أتباعه هربوا حاملين رأسه معهم، على أمل أن تظلّ الحكومة جاهلة مصيره. لكن كيف استمرت عصابات اللصوص في الازدهار، يمكن من خلال حادثة شاهدها بنفسها أن توضح ذلك إلى حدّ ما. كان ذلك في أيام شكيرجي وأنا كنت في رحلة من هاليكارناسوس إلى أيدين، في مكان ليس بعيداً عن جبل تمولوس، الذي كان تحت السيطرة التامة لرئيس إحدى العصابات. مرتت بسرعة، وأنا محملة بوزن خفيف، ومعني خادم واحد وبغل يشكّلان مجموعتي. قضينا تلك الليلة في غرفة الضيوف لأحد شيوخ القرية المضيافين حيث توقفنا. بعد رحلة يوم واحد في طريق من الجداول والمراعي، وصلنا إلى إيلينا في جنوب أيدين، وأقمنا في منزل أحد الأغوات. هناك التقينا بضابط من الدرك التركي كان مسؤولاً عن صيد اللصوص، وكان لي معه في المساء الكثير من الأحاديث الودية. في تلك الليلة بالذات، قبض رجاله على قاطع طريق تمّ إحضاره إلى منزل الآغا وكان مسلحاً حتى أسنانه، ويبدو مظهره مناسباً تماماً لمهنته. فضلاً عن ذلك، تعرف عليه أحد الضباط، حيث وجد إشارة عنه في الدليل الرسمي عن قطاع الطرق الذي كان يحمله معه. يحتوي على الأوصاف الشخصية للخارجين عن القانون المشهورين، وتوافق صاحبنا مع أحد هؤلاء تماماً. وبعد الهياج في غمرة التهاني تمّ وضعه في الحبس. أظن أنه تمّ سجنه في حظيرة الأبقار. لكن اعتقاله لم يستمر أكثر من ليلة واحدة. في اليوم التالي نجح برشوة الآغا والضابط وتمّ إخلاء سبيله بشكل خفي، حيث وصلني الخبر بينما كنت أقوم بفحص أنقاض معبد هيكات القريب. يجب ألا يغيب عن بالنا، أن على الضابط أن يعيش وأن روايته متأخرة كالعادة عدة شهور. لقد جعلني هذا الحادث أن أفهم بشكل أفضل من ذي قبل الصعوبات التي واجهتها الحكومة العثمانية في عملية وقف قطاع الطرق.

ينظر الأتراك بحسد وغيره نحو أغلب اليونانيين، وكما هي حال الأرمن، لا يكتنون لهم أية محبة، لأن التركي البطيء والبليد لا يستطيع مجاراتهم ومنافستهم في التجارة. هنا، كما في أيّ مكان آخر، معظمهم يعمل في قطع الخشب وسحب المياه -وهناك أيضاً مجموعة

مثيرة للاهتمام تُعرف باسم تختجي، هم الحطابون- أما الطورانيون فيجدون أنفسهم في المناطق الريفية الزراعية، حيث يجتهدون في الفلاحة، في حرت الأرض والزراعة، والذين يغتصب أغلب مردود أراضيهم المربحة من خلال الابتزاز الرسمي، فضلاً عن الفيضانات الجارفة التي يهمل المسؤولون في مناطقهم كبح جماحها، وكذلك التقلبات والصعوبات في النقل على الطرق غير المعبدة وجداول الترع التي تفتقر إلى الجسور. لقد شاهدت بنفسي معاناة سكان وادي ماسندر من الخراب الكبير الذي يسببه فيضان النهر. حين كانت المياه تغمر الأرض بعرض ثلاثة أميال بالقرب من المصب في ميليتس، وتدفقت السيول لمدة ساعة في الحقول حيث طغت المياه جنوب أيدين. كان الفلاحون في آسيا الصغرى هم الذين تحملوا وطأة حرب البلقان في السنوات ١٩١٢-١٩١٣. وبعد استنزاف قوتهم في تلك المعارك والأمراض، تم استدعاؤهم مرة أخرى في خريف عام ١٩١٤، للقتال من أجل ألمانيا في ساحات المعارك في أوروبا والقوقاز ووادي بلاد الرافدين. لا بد من أن أعدادهم في المزارع قد انخفضت لدرجة أنه من الصعب تخيل كيفية حرت الحقول وجمع المحاصيل. كنت على علم في السابق بأن العمالة المحلية في سواحل الأناضول، لم تكن كافية لتلبية الاحتياجات الزراعية، وفي كل صيف كان يستعان باستقدام الألبانيين لجمع الحصاد. أما طبقة التجار فقد تم تدميرها لأسباب أخرى. تم إبعاد اليونانيين من منازلهم على الساحل إلى العراء في الأراضي الداخلية وتضوّروا جوعاً، كما اضطر الأرمن إلى الاختفاء، لكن بشكل عام يمكن أن تكون حالة منطقة ساحل الأناضول أقلّ بؤساً من حالة سوريا.

لقد تحدثت بشكل أساسي عن السواحل الغربية لآسيا الصغرى لأنها الجزء الذي أعرفه جيداً، لكن هناك أيضاً السواحل المطلّة على بحر مرمرة والبحر الأسود وهي ليست أقلّ خصوبة. من رأس أراضي طروادة مروراً ببورصة إلى إسنيك، وهي أزنك القديمة، ومن إسنيك إلى أزميت ومن الشرق إلى قسطنطيني، توجد أحزمة زراعة خصبة تمتد فوق السهول وتتبع طرق الوديان المتعرجة. تقع بعض هذه المناطق في طرق السياح، وبالنسبة لمن زار قونية أو أيدين، يجب أن يكون هناك عدة مئات ممن يعرفون سهل بورصة الذي لا مثيل له وقد سافروا عبر أزنك للانضمام إلى خط السكة الحديد في أزميت. تاريخياً كانت مدينة بورصة مثل قونية عاصمة، ليس للسلاجقة ولكن للعثمانيين أنفسهم، لأكثر من مئة عام قبل أن ينتزعوا القسطنطينية من البيزنطيين. وقد تصبح -من يدي؟- عاصمة عثمانية مرة أخرى.

تختلف الشواطئ الجنوبية لآسيا الصغرى اختلافاً كبيراً عن هاليكارناس، من بودروم الحديثة، حتى حدود قلقيلية. تنخفض سلسلة جبال طوروس بشدة إلى البحر، بحيث لا يوجد في الغالب طريق على طول الشاطئ. وللوصول إلى آثار المدن الهلنستية التي تزين ليقياً وبامفيليا، لا بد من القدوم عن طريق البحر. وأفضل الطرق المؤدية إلى الداخل دائماً تكون عن طريق أداليا، ومن هناك يؤدي المسار عبر ممر مرتفع نحو بحيرة بولدور، إلى الغرب قليلاً من إيرديش. وتقف أنقاض سالسوس بالقرب من الجزء العلوي من الممر - زرت تلك المنطقة مرة واحدة في أواخر نيسان (أبريل) ورأيت أن نصف المسرح ما زال ممتلئاً

بالثلوج. كان هذا الطريق التجاري القديم على وشك أن يتطوّر قبل الحرب من قبل الحكومة الإيطالية، التي حصلت على امتياز لبناء خط لسكة الحديد من أداليا إلى بولدور، حيث كان من الممكن ربطه بمدينة إيرديش على امتداد خط سكة أيدين الخاصة بنا. إن إحدى ثروات المنحدر الجنوبي لجبال طوروس، هنا وفي قلقيلية، هو الأخشاب. إن عملية التشجير من الممكن تحسينها بشكل كبير، لكن في تركيا الآسيوية تنعدم المهارة العلمية للتشجير، وتكون الأشجار عرضة لقضم الماعز والتقطيع لاستخدامها في مواقد الفحم، فنادراً ما يُسمح للأشجار بالوصول إلى أيّ حجم معقول، فربما ستكون الغابات التي يمكن التحكم فيها بشكل صحيح ذات قيمة عالية.

إلى جانب خطوط السكك الحديدية الرئيسية من أزمير إلى الداخل، والتي تحدثت عنها أعلاه، كان هناك خطان قصيران آخران من الساحل. كانت هناك سكة حديد قليلة الأميال من مودانيا على البحر الأسود إلى بورصة، تمّ إنشاؤها منذ ١٥ عاماً أو أكثر، وقبل الحرب مباشرة تمّ فتح امتداد لخط مانيسا - سوما، وهو بحدّ ذاته فرع من أزمير - قصبه. ويمتد هذا الخط إلى بانديرما، على بحر مرمرة في غرب مودانيا، وبالتالي يربط ميناء أزمير على البحر المتوسط بميناء على المياه الداخلية لبحر مرمرة. تستغرق الرحلة بالسكك الحديدية أربعة أيام من أزمير إلى الآستانة عبر أفيون وإسكيشهير وأزميت.

أما ذلك الفرع من خط أيدين إلى مدينة سوكة، وهي أحد مراكز تجارة عرق السوس، فيصل إلى الساحل الجنوبي تقريباً، لأن سوكة ليست بعيدة عن مصب نهر ماندرس؛ لكن إلى الغرب من سكة حديد بغداد لا يوجد خط شمالي وجنوبي عبر آسيا الصغرى، ولا توجد طرق التجارة في هذا الاتجاه. باستثناء المناطق الصغيرة المستقلة مثل سهل بورصة، فإنّ ميل التجارة عبر غرب آسيا الصغرى هو النزول إلى أزمير، حيث يمكن الوصول إلى البحر المفتوح.

لقد وصلت هنا إلى النهاية، فالمحطة التالية ستعبر بي من تركيا الآسيوية إلى غاليبولي، التي نثر على أرضها الكثير من قتلتانا، ومن بعدها الآستانة، حيث لا يزال المستشارون الأشرار للجمعية والألمان يوجهون الإمبراطورية العثمانية على طريق الخراب. إذا كنت سأضع تقدماً موجزاً للترك، فمن الطبيعي سأثير بعض الجدل. لا يمكن لأيّ شخص يعرف الأتراك ويعرف تاريخهم أن يتهمهم بأنهم هم السبب الوحيد في تدمير بلدهم تحت حكمهم. يقع العبء الكبير من اللوم على عاتق دول أوروبا، التي كانت تركيا بالنسبة لهم بيدقاً في لعبة مخزية من الغيرة والجشع طال أمدها. لكن وقت مثل هذه الذرائع قد ولى. لقد تمّ مسحه بدماء ودموع مختلف القوميات المحكومة. «جاء اليوم الأخير والكارثة التي لا مفرّ منها» - دعونا نفكّر في ما يجب أن يجلبه اليوم الجديد.

أعتقد أنه من المسلّم به الآن، أنه لا يمكن السماح لبقاء الولايات العربية تحت الحكم التركي، ولا حتى المناطق الجبلية، بما في ذلك قلقيلية، التي تعرضت في ثلاث مناسبات

منفصلة خلال الأعوام العشرين الماضية، بأمر من الأستانة، إلى أبشع أهوال الفتن الدينية. وإذا تمّت المحافظة على سيادة الدولة العثمانية، فيجب على الأقلّ إما مساعدة السكان المسيحيين على الانتقال، أو أن يكون هناك تعهد ملزم -لأوروبا وكذلك لتركيا- بعدم تعرّضهم للمضايقة. حتى لو تركنا مناطق زراعة الحبوب في الهضبة والتنوع الغني في الخصوبة للأراضي الساحلية -على الرغم من أننا قد نكون على يقين من أنها لن تُترك غير متطورة- فماذا ستكون نتائج السلام والتقدم في تركيا الآسيوية؟ نحن نتعامل مع واحدة من أهم المناطق الزراعية في العالم. فالعراق ليس وحده الثاني في الإنتاجية بعد مصر، في حين إنه في مساحة تبلغ أكثر من ضعف مساحة غلّة الحبوب السورية، وبدون وسائل نقل حديثة حينها، ساعدت في إطعام روما، وتجارة العالم القديم وكذلك في العصور الوسطى. تدفقت الضرورة إلى المراكز الصناعية الشرقية. تدين دول المدن البحرية في إيطاليا وجنوة والبندقية بازدهارها للتجارة الشرقية، واستفادت من ذلك موانئ البحر الأدرياتيكي. لكن بعد فترة وجيزة من الانهيار الأخير للإمبراطوريتين العباسية والبيزنطية، جاء اكتشاف أمريكا وفتح طرق تجارية جديدة عبر المحيط الأطلسي. قد تؤدي إعادة تأهيل الشرق الأدنى مرة أخرى إلى تغيير التوازن أو دعنا نقول إنشاء توازن عادل، من خلال إعادة إنشاء سوق كان معلقاً لقرون عدة. ستضيف بما لا يقاس إلى ثروة الأمم التي أهدرتها الحرب وتوفر مجالات جديدة لإحياء الصناعات في أوروبا. وبما أن كلّ التجارة الناجحة يجب أن تكون مفيدة على قدم المساواة للطرفين المعنيين (لأنه في التجارة لا توجد صفقة جيدة باستثناء تلك التي يربح منها كلا الطرفين) سيتم ربط الشرق والغرب معاً مرة أخرى من خلال مصلحة مشتركة.

(9) هو الشيخ فائز الغصين (١٨٨٣ - ١٩٦٨).

(10) محطة القطار «حيدر باشا» تقع في الجزء الآسيوي من اسطنبول.

(11) الضمان الكليومتری: هي سندات مالية تمنح من قبل الحكومة لأصحاب الامتياز في مشاريع السكك الحديدية مما يضمن لهم عائداً مادياً ثابتاً.

1. الغلاف
2. عرب العراق والجزيرة
3. مقدمة
4. الخاتون غيرتروود بيل والعراق
5. الجزء الأول عرب بلاد ما بين النهرين
6. في شرق الجزيرة العربية
7. الجزء الثاني تركيا الآسيوية
8. الولايات العربية: النهران